

في ظلال القرآن

الحزب العشرون

بقلم
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بمطبعة دار إحياء التراث العربي
مبنى الباني أمبلي وشركة

إهداء ٢٠٠٦

المرحوم الدكتور/ علي حسين كرار
القاهرة

في ظلال القرآن

أبجزء العشرون

بقلم
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار الإسلام
مبنى الباني أحمد بسبيل وشركة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من سورة النمل والقصص والعنكبوت

« قُلْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا مَا يُبَشِّرُكُمْ ؟ *
 أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِثَ
 ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْفِقُوا شَجَرًا ؟ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ *
 أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ
 الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؟ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ
 إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؟ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ؟ قَلِيلًا مَا
 تَذَكَّرُونَ * أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ
 يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُبَشِّرُكُمْ * أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ،
 وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ .

« قُلْ : لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
 يُبْعَثُونَ * بَلَى أَذَارَكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ فِيهَا ضَالِّونَ *
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُ وَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟ * قَدْ وُعِدْنَا هَذَا
 نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ *
 وَيَقُولُونَ : مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ * قُلْ : عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ
 بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنْ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَشْكُرُونَ * وَإِنْ رَبَّكَ لَكَيْلٌ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ لَهُ
 لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ *

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ السَّمْعَ وَلَا تَرَى الْأَبْصَارَ * وَمَا أَنْتَ بِبَارِئٍ مِنَ الْغَيْبِ * إِنَّ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ .

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمَا قَالَ : أَكْذَبْتُم بِآيَاتِيَ وَلَمْ نَحْيِطُوا بِهَا عِلْمًا ؟ أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْتَقِبُونَ .

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الْأَيْلَةَ لِيُسْكَتُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَقَرَّعَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ - إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ - وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَانِيَرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَسَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ . هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟

« إِنَّمَا أَمِِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأَمِِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ ؛ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ : إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، سَيَرِبْكُمْ آيَاتِهِ فَتَمَرِّقُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » ..

هذا الدرس ختام سورة النمل ، بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط - عليهم السلام - وهذا الختام متصل بمطلع السورة في الموضوع ، والقصص بينهما متناسق مع اللطاع والختام . كل قصة تؤدي جانباً من جوانب الفرض الذي يعالجه سياق السورة كلها .

وهو يبدأ بالحمد لله ، وبالإسلام على من اصطفاهم من عباده ، من الأنبياء والرسل ، ومنهم الذين ورد قصصهم من قبل . يفتح بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة ، جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس ، وأطواء الغيب ؟ وفي أشراف الساعة ومشاهد القيامة ، وأهوال الحشر ، التي يفزع لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله .

* * *

في هذه الجولة يقفهم أمام مشاهدات في صفحة الكون وفي أطواء النفس ، لا يملكون إنكار وجودها ، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد الدبر القدير . ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار الحجة ، وأقطار الشاعر ، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السماوات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبثنا به حقائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ من يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم : أإله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى . لا يملكون أن يقولوا : إن إلهاً مع الله يفعل من هذا كله شيئاً ؟ وهم مع هذا يبدون أرباباً من دون الله !

وعقب هذه الإيقاعات القوية التي تفتح القلوب ، لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم ، أو إيقاعات وجدانية يعصونها في قلوبهم . . يستعرض تكديهم بالآخرة ، وتخبطهم في أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الفارين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع . ويرجع

بهم في ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر . وكأنما يهز قلوبهم هذا ويرجها رجا . . .

وفي نهاية الجولة يجيء الختام أشبه بالإيقاع الأخير عميقا رهيبا . . ينفض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده من أمر المشركين المستهزئين بالوعد ، المكذبين بالآخرة ، وقد وجه قلوبهم إلى مشاهد الكون وأحوال الحشر ، وعواقب الطامعين والعصاة - ويرتكهم إلى مصيرهم الذي يختارون ؟ ويحدد منبهه ووسيلته ولئن شاء أن يختار :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل : إنما أنا من النذرين » . . .

ثم يختم الجولة كما بدأها بحمد الله الذي يستأهل الحمد وحده ؛ ويكلمهم إلى الله يريهم آياته ؛ ويطلعهم على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن :

« وقول : الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بظافل عما تعملون » . .
وتختم السورة بهذا الإيقاع المؤثر العميق .

« قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آله خير أم ما يشركون ؟ » . .

يأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول الكلمة التي تليق أن يفتتح بها المؤمن حديثه ودعوته وجداله ، وأن يختمه كذلك : « قل : الحمد لله » . . المستحق للحمد من عباده على آلائه ، وفي أولها هدايتهم إليه ، وإلى طريقه الذي يختاره ، ومنهجه الذي يرضاه .
« وسلام على عباده الذين اصطفى » لجل رسالته وتبليغ دعوته ، ويان منهجه .

وبعد هذا الاقتتاح يأخذ في توقعاته على القلوب المنكورة لآيات الله ، مبتدئا بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة :

« آله خير أم ما يشركون ؟ » . .

وما يشركون أصنام وأوثان ، أو ملائكة وجن ، أو خلق من خلق الله على أية حال ، لا يرتقى أن يكون شيئا بالله - سبحانه - فضلا على أن يكون خيرا منه . ولا يخطر على قلب عاقل أن

يعقد مقارنة أو موازنة . ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض ، وتوبيخ صرف ، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجدل ، أو أن يطلب عنه جواب !
ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال آخر ، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ، ومن مشاهدته التي يرونها بأعينهم :

« أم من خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبأنا به حقائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبئوا شجرها ؟ إله مع الله ؟ بل هم قوم يدعون » ..
والسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها ، ولا يملك كذلك أن يدعى أن هذه الآلهة للدعاة خلقتها .. وهى أصنام أو أوثان ، أو ملائكة وشياطين ، أو شمس أو قمر .. فالبداهة تصرخ فى وجه هذا الادعاء . ولم يكن أحد من الشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه ، مخلوق بذاته ، كما وجد من يدعى مثل هذا الادعاء للهايات فى القرون الأخيرة ! فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض ، والتوجيه إلى التفكير فىمن خلقها ، كفيلا بإلزام الحجة ، ودحض الشرك ، وإلزام الشركين . وما يزال هذا السؤال قائماً فإن خلق السماوات والأرض على هذا النحو الذى يبدو فيه القصد ، ويضغ فيه التدبير ، ويظهر فيه التناسق المطلق الذى لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ، ملجئاً بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد ، الذى تنضج وحدانيته بآثاره . ناطق بأن هناك تسميماً واحداً متناسقاً لهذا الكون لا تعدد فى طبيعته ولا تعدد فى اتجاهه . فلا بد أنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة . إرادة قاصدة لا يفوتها القصد فى الكبير ولا فى الصغير .

« أم من خلق السماوات والأرض » .. « وأنزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حقائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبئوا شجرها ؟ » ..

ولاء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها ، وتعدر تطليها بغير الإقرار بخالق مدبر ، فطر السماوات والأرض وفق هذا الناموس الذى يسمح بزول اللط ، بهذا القدر ، الذى توجد به الحياة ، على النحو الذى وجدت به ، فما يمكن أن يقع هذا كله مصادفة ، وأن تتوافق للصادقات بهذا الترتيب الفائق ، وبهذا التقدير المشبوط . المنظور فيه إلى حاجة الأحياء وبخاصة الإنسان . هذا التخصيص الذى يعبر عنه القرآن الكريم بقوله : « وأنزل لكم ... » والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار الحسية لهذا الماء للنزل للناس

وفق حاجة حياتهم ، منظورا فيه إلى وجودهم وحاجاتهم وضرورتهم . يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية القائمة حيالهم وم عنها غافلون :

« فأنبئنا به حدائق ذات بهجة » . .

حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة . . ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية . وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحى الذى يعثها كفيل بإحياء القلوب . وتدبر آثار الإبداع فى الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذى أبدع هذا الجمال العجيب . وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليحجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر . وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات فى الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تنقصر دونها عبقرية الفن فى القديم والحديث . فضلا على معجزة الحياة النامية فى الشجر - وهى السر الأكبر الذى يعجز عن فهمه البشر - : « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » وسر الحياة كانت وما يزاله مستغلقا على الناس . سواء أكان فى النبات أم فى الحيوان أم فى الإنسان . فما يملك أحد حق اللحظة أن يقول : كيف جاءت هذه الحياة ، ولا كيف تلبست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان . ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الكون للنظور .

وعند ما يصل فى هذه الوقفة أمام الحياة النامية فى الحدائق البهجة إلى إثارة التطلع والانتباه وتحريك التأمل والتفكير ، يهجم عليهم بسؤال :

« أإله مع الله ؟ » ..

ولا مجال لمثل هذا الادعاء ؛ ولا مفر من الإقرار والإذعان . . وعندئذ يبدو موقف القوم عجيبا ، وهم يسوون آلهتهم للدعاة بالله ، فيعبدها عبادة الله : « بل هم قوم بدلون » ..

ويدلون . إما أن يكون منهاها يسوون . أى يسوون آلهتهم بالله فى العبادة . وإما أن يكون منهاها : يعبدون . أى يحيدون عن الحق الواضح البين . بإشراك أحد مع الله فى العبادة ؛ وهو وحده الخالق الذى لم يشاركه أحد فى الخلق . وكلا الأمرين تصرفه بحجيب لا يليق !

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى ، يواجههم بها كما واجههم بحقيقة الخلق الأولى :

« أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ » ..

لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هي حقيقة خلق السماوات والأرض . أما هذه فهي الهيئة التي خلق عليها الأرض . لقد جعلها قرارا للحياة ، مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة وتنمو وتتكاثر . ولو تغير وضعا من الشمس والقمر ؛ أو تغير شكلها ، أو تغير حجمها ، أو تغيرت عناصرها والعناصر المحيطة في الجو بها ، أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها ، أو سرعة دورتها حول الشمس ، أو سرعة دورة القمر حولها ... إلى آخر هذه اللابسات الكثيرة التي لا يمكن أن تتم مصادفة ، وأن تتناسق كلها هذا التناسق .. لو تغير شيء من هذا كله أدنى تغير ، لما كانت الأرض قرارا صالحة للحياة .

وربما أن المخاطبين إذ ذاك لم يكونوا يدركون من قوله تعالى : « أم من جعل الأرض قرارا ؟ » كل هذه العجائب ، ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرة صالحة للحياة على وجه الإجمال ؛ ولا يملكون أن يدعوا أن أحدا من آلهتهم كان له شرك في خلق الأرض على هذا للنوال . وهذا يكفي . ثم يبق الناس بعد ذلك مفتوحا للأجيال ؛ وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئا من معناه الضخم المتجدد على توالى الأجيال . وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول ، على توالى الأزمان !

« أم من جعل الأرض قرارا . وجعل خلالها أنهارا ؟ » ..

والأنهار في الأرض هي شرايين الحياة ، وهي تنتشر فيها إلى الشرق وإلى الغرب ، وإلى الشمال وإلى الجنوب ، تحمل معها الحصب والحياة والثمار . والأنهار تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها وفق طبيعة الأرض . والله الذي خلق هذا الكون هو الذي قدر في تصميمه إمكان تكون السحب ، وزول للطر ، وجريان الأنهار . وما يملك أحد أن يقول : إن أحدا سوى الخالق اللدبر قد شارك في خلق هذا الكون على هذا النحو ؛ وجريان الأنهار حقيقة واقعة يراها الشركون . فمن ذا أوجد هذه الحقيقة ؟ « إله مع الله ؟ »

« وجعل لها رواسى » ..

والرواسى : الجبال . وهي ثابتة مستقرة على الأرض . وهي في القالب منابع الأنهار ؛ حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان ؛ وتشق مجراها بسبب تدفقها من قم الجبال العالية بنف وقوة .

والرواسى الثابتة تقابل الأنهار الجارية في الشهد الكونى الذى يرضه القرآن هنا والتقابل التصويرى ملحوظ في التعبير القرآنى . وهذا واحد منه . لذلك يذكر الرواسى بعد الأنهار .
« وجعل بين البحرين حاجزا » ..

البحر الملح الأجاج ، والنهر العذب القرات . سماهما بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتهما المشتركة وهى للماء . والحاجز فى الغالب هو الحاجز الطبيعى ، الذى يحمل البحر لا يفيض على النهر فيفسده . إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر . وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب فى البحار ، ولكن مجرى النهر يبقى مستقلا لا يطنى عليه البحر . وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر لسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائما من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر . إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما مميزا لا يمتزجان ولا يئى أحدهما على الآخر . وهذا من سنن الله فى خلق هذا الكون ، وتسميته على هذا النحو الدقيق .

فمن قل هذا كله ؟ من ؟ « إله مع الله ؟ » ..

وما يملك أحد أن يدعى هذه السعوى . ووحدة التصميم أمامه تجبره على الاعتراف بوحدة الخالق .. « بل أكثرهم لا يفلون » ..

ويذكر العلم هنا لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتلى الصنعة فيها والتنسيق ، وتدبر السنة فيها والناموس . ولأن التركيز فى السورة كلها على العلم (كما ذكرنا فى تلخيص السورة فى الجزء الماضى) .

ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم :

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويصلحكم خلفاء الأرض ؟ إله مع الله ؟ قليلا ما تدكرون » ..

فليس وجدانهم وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم ، وواقع أحوالهم .

فالمضطر فى لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعوهم ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تعيق الحلقة ، وتشتد الحنقة ، وتتخاذل القوى ، وتهاوى الأسناد ؛ وينظر الإنسان بحواليه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص . لا قوته ، ولا قوة فى الأرض تنجده . وكل ما كان يمد له ساعة الشدة قد زانغ عنه أو تغلى ؛ وكل من كان يرجوه للكربة

قد تنكر له أو تولى .. في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الثوث والنجدة ، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء . فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه . هو وحده دون سواه . يجيبه ويكشف عنه السوء ، ويرده إلى الأمن والسلامة ، وينجيه من الضيقة الآخذة بالحقائق .

والناس ينفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء ، وقترات النفلة . ينفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة . فأما حين تلجئهم الشدة ، ويضطرم الكرب ، فتزول عن فطرتهم غشاوة النفلة ، ويرجعون إلى ربهم منيئين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين .

والقرآن يرد للكافرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم ، ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل . حقائق خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الحدايق البهيجة ، وجعل الأرض قرارا ، والجبال رواسي ، وإجراء الأنهار ، والحاجز بين البحرين . فالتجاء للمضطر إلى الله ، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق . هذه في الآفاق وتلك في الأضس سواء بسواء .

ومعنى في لس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم : « ويحملك خلفاء الأرض » .. فمن يحمل الناس خلفاء الأرض ؟ أليس هو الله الذي استخلف جنسهم في الأرض أولا . ثم جعلهم قرنا بمد قرن ، وجيلا بمد جيل ، يخلف بعضهم بعضاً في ملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء ؟

أليس هو الله الذي فطرم وفق التواميس التي تسمح بوجودهم في هذه الأرض ، وزودهم بالطاقات والاستمدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها ، وتمدهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى . التواميس التي تجعل الأرض لهم قرارا ؟ والتي تنظم الكون كله متناسقا بضمه مع بعض بحيث تتيأ للأرض تلك اللواقط والظروف المساعدة للحياة . ولو اختلف شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة في تصميم هذا الوجود وتنسيقه لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلا^(١) .

وأخير أليس هو الله الذي قدر للوث والحياة ، واستخلف جيلا بمد جيل ؟ ولو عاش الأولون

١ (٢) « أراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » في سورة الفرقان . جزء ١٩ ، ص ١٢ »

لفاقت الأرض بهم وبالأخرين ؟ ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير ، لأن تجدد الأجيال هو الذى يسمح بتجديد الأفكار والتجارب والمحاولات ، وتجدد أنماط الحياة ، بغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلا فى عالم الفكر والشعور . فأما لو كان القدامى أحياء لتضخم التصادم والاعتراض ، ولتمطل موكب الحياة للدفع إلى الأمام !

إنها كلها حقائق فى الأنفس كذلك الحقائق فى الآفاق . فمن الذى حقق وجودها وأنشأها ؟ من ؟

« أإله مع الله ؟ » ..

إنهم لينسبون ويفلون . وهذه الحقائق كاملة فى أعماق النفوس ، مشهودة فى واقع الحياة :

« قليلا ماتذكرون ! »

ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقى موصولا بالله صلة القطرة الأولى . ولما غفل عن ربه ، ولا أشرك به أحدا .

ثم يقضى السياق إلى بعض الحقائق الأخرى المثلة فى حياة الناس ونشاطهم على هذا الكوكب ، ومشاهداتهم التى لا تنكر :

« أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ! » ...

والناس - ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن - يسلكون فجاج البر والبحر فى أسفارهم ؟ ويسبرون أسرار البر والبحر فى تجاربهم .. ويهتدون .. فمن يهديهم ؟ من أودع كيانتهم تلك القوى للدركة ؟ من أقدرهم على الاحتذاء بالنجوم وبالآلات وبالعلم ؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون ، وطاقاتهم بأسراره ؟ من جعل لأذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء ؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط الحسوسات ؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة للدركة للسهة بالمقل أو القلب للاستفهام بكل المدركات ، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات ؟

من ؟ أإله مع الله ؟

« ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحته ؟ » ..

والرياح ، مهما قيل فى أسبابها الفلكية والجغرافية ، تابعة للتصميم الكونى الأول ،

الذى يسمح بحرياتها على النحو الذى تجرى به ، حاملة السحب من مكان إلى مكان ، مبشرة بالمطر الذى تتجلى فيه رحمة الله ، وهو سبب الحياة .

فمن الذى فطر هذا الكون على خلقته ، فأرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ من ؟
« أإله مع الله ؟ » .. « تعالى الله عما يشركون ! » .

ويختم هذه الإيقاعات بسؤال عن خلقهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض ، مع التحدى والإفحام :

« أم من يبدأ الخلق ثم يميده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ..

وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن أحدا تلييلها بغير وجود الله ووحدانيته . وجوده لأن وجود هذا الكون ملجئ للإقرار بوجوده ؟ وقد بدأت بالفتل المنطقي كل محاولة لتلييل وجود هذا الكون على هذا النحو الذى يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله . ووحدانيته لأن آثار صنعه ملجئة للإقرار بوحدانيته ؟ فليها آثار التقدير الواحد ، والتدبير الواحد ؟ وفيها من التناقض المطلق ما يحزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد .

فأما إعادة الخلق فهذه التى كانوا يجادلون فيها ويمارون . ولكن الإقرار يبدء الخلق على هذا النحو الذى يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجئ كذلك للتصديق بإعادة الخلق ، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم فى دار القضاء ، التى لا يتم فيها الجزاء الحق على الأعمال وإن كان يتم فيها أحيانا بعض الجزاء . فهذا التنسيق الواضح فى خلقه الكون يقتضى أن يتم تمامه بالتنسيق المطلق بين العمل والجزاء . وهذا لا يتم فى الحياة الدنيا . فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى يتحقق فيها التنسيق والكمال .. أما لماذا لم يتم فى هذه الأرض ذلك التنسيق للمطلق بين العمل والجزاء ؟ فذلك متروك لحكمة صاحب الخلق والتدبير . وهو سؤال لا يجوز توجيهه لأن الصانع أعلم بصنعه . وسر الصنعة عند الصانع . وهو غيب من غيبه الذى لم يطلع عليه أحدا !

ومن هذا التلازم بين الإقرار ببداية الحياة والإقرار بمعبيها يسألهم ذلك السؤال : « أم من يبدأ الخلق ثم يميده ؟ » .. « أإله مع الله ؟ » ..

والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء . ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان ، وللاء والهواء ، للطعام والشراب والاستنشاق ؛ ومنها كنوز الأرض من معادن وقلات ؛ وكنوز البحر من طعام وزينة . ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء ، وقوى أخرى لا يعلمها يد إلا الله ؛ ويكشف عن شيء منها لعباده أنآ بعد آن .

وأما رزقهم من السماء فلهم منه في الحياة الدنيا : الضوء والحرارة والمطر وسائر ما يسره الله لهم من القوى والطاقات . ولهم منه في الآخرة عطاء الله الذي يقسمه لهم - وهو من السماء بمدلولها المعنوي ، الذي يتردد كثيرا في القرآن والسنة ؛ وهو معنى الارتضاع والاستلاء . وقد ذكر رزقهم من السماء والأرض بعد ذكر البدء والإعادة ، لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة . فملاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذي يبيت على الباد .. وعلاقته بالإعادة أن الناس يحزون في الآخرة على عملهم . وتصرفهم في هذا الرزق الذي أعطوه في الدنيا .. وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة . فهو في الدنيا للحياة ، وهو في الآخرة للجزاء .. وهكذا تبدو دقة التناسق في السياق القرآني العجيب .

والبدء والإعادة حقيقة . والرزق من السماء والأرض حقيقة . ولكنهم ينفلون عن هذه الحقائق ، فيردهم القرآن إليها في تحد وإفحام :

« أإله مع الله ؟ » . « قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . .
وإنهم ليمجزون عن البرهان ، كما يمجز عنه من يحاوله حتى الآن . وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة . يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس ؛ فيجعل الكون كله إطارا ، للمنطق الذي يأخذ به القلوب ؛ ويوقظ به الفطرة ويجلوها لتحكم منطقها الواضح الواصل البسيط ؛ ويستعجش به المشاعر والوجدانات بما هو مركز فيها من الحقائق التي تشبهها التفلة والنسيان ، ويحبها الجعود والكفران . . ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة ، الثابتة في تصميم الكون وأغوار النفس ؛ والتي لا تقبل للمراء الذي يقود إليه المنطق التهني . البارد ، الذي انتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقي ، وفشا فيما يسمى علم التوحيد ، أو علم الكلام .

وبعد هذه الجولة في الآفاق وفي أنفسهم لإثبات الوجدانية ونفي الشرك . يأخذ معهم في جولة أخرى عن التيب المستور الذي لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر ، وعن الآخرة وهي غيب من غيب الله ، يشهد المنطق والبدهة والقطرة بضرورته ؟ ويسجز الإدراك والعلم البشري عن تحديد مواعده :

« قل : لا يعلم من في السماوات والأرض التيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . بل اذكرك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عميون . وقال الذين كفروا : إذا كنا ترابا وآبائنا أئنا لنخرجون ؟ لقد وعدنا هذا نحن وآبائنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين اقل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الله تستعجلون . وإن ربك ل ذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون . وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » .

والإيمان باليب والآخر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل في العقيدة ، لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به . فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتطابق به القلب ، وتحسب حساب به النفس ، ويقم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها للتوالية موقفاً محيياً من قضية البعث والدار الآخرة ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بيتاً بعد الموت وحياة بعد الدثور . ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التي لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة ، وتستعمر الجحود والمصية ، وتستطرد في الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب . ولا يعلم التيب إلا الله . وهم كانوا يطلبون تحديد مواعدها أو يكذبوا بالنذر ، ومحبسوها أساطير ، سبق تكرارها ولم تحقق أبداً !

فهنا يقرر أن التيب من أمر الله ، وأن علمهم عن الآخرة منته محدود :

(٢ - في خلال القرآن [٢٠])

« قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيا ن يمشون . بل
أدراك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عميون » . .

ولقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لا ينفذ إليه علمه ، ولا يعرف
مما وراء الستر للسدل ، إلا بقدر ما يكشف له منه علام النيوب . وكان الخير في هذا الذي أراده
الله ، فلو علم الله أن في كشف هذا الستر للسبل خيرا لكشفه للإنسان للتطلع الشديد التطلع
إلى ما وراءه !

لقد منح الله هذا الإنسان من اللواهب والاستمدادات والقوى والطاقات ما يحقق به
الخلافة في الأرض ، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم . . ولا زيادة . . وانكشف ستر
الغيب له ليس مما يعينه في هذه المهمة . بل إن انطباق أهدا به دونه لما يشر تطلعه إلى المعرفة ،
فينقب ويبحث . وفي الطريق يخرج الحجب في باطن الأرض ، وجوف البحر ، وأقطار
القضاء ؛ ويهتدى إلى نوايس الكون والقوى الكامنة فيه ، والأسرار للودعة في كيانه خبير
البشر ، ويعمل في مادة الأرض ويركب ، ويدل في تكوينها وأشكالها ، ويتدع في أعماط
الحياة ونماذجها . . حتى يؤدي دوره كاملا في عمارة هذه الأرض ، ويحقق وعد الله بخلافة هذا
المخلوق الإنساني فيها .

وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله ، ولكن كل من في السماوات والأرض
من خلق الله . من ملائكة وجن وغيرهم ممن علمهم عند الله . فكلهم موكلون بأمور
لا تستدعي انكشاف ستر الغيب لهم ، فيبقى سره عند الله دون سواه .

« قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله » . .

وهو نس قاطع لا تبقى بعده دعوى للنع ، ولا يبقى معه مجال للوم والخرافة .

وبعد هذا التعميم في أمر الغيب يخصص في أمر الآخرة لأنها القضية التي عليها النزاع مع
المشركين بمد قضية التوحيد :

« وما يشعرون أيا ن يمشون » . .

ينفي عنهم العلم بموعده البعث في أعظم صورته وهو الشعور . فهم لا يعلمون بهذا الموعد
يقينا ، ولا يشعرون به حين يقترب شعورا . فذلك من الغيب الذي يقرر أن لا أحد يعلمه

في السماوات ولا في الأرض .. ثم يضرب عن هذا ليتحدث في موقفهم هم من الآخرة ، ومدى علمهم بحقيقتها :

« بل ادرك علمهم في الآخرة » ..

فانتهى إلى حدوده ، وقصر عن الوصول إليها ، ووقف دونها لا يلبسها .

« بل هم في شك منها » ..

لا يستيقنون بمجيئها ، بله أن يعرفوا موعدا ، وينظروا وقوعها .

« بل هم منها عمون » ..

بل هم عنها في عسى ، لا يصرون من أمرها شيئا ، ولا يدركون من طبيعتها شيئا .. وهذه أشد بعدا عن الثانية وعن الأولى :

« وقال الدين كفروا : إذا كنا ترابا وآبأؤنا أننا لمخرجون ؟ » ..

وهذه كانت العقدة التي يقف أمامها الدين كفروا دائما : إذا فارقنا الحياة ، ومرت أجسادنا وتناثرت في القبور ، وصارت ترابا .. إذا وقع هذا كله - وهو يقع للموتى بدفنة من دفنهم إلا في حالات نادرة شاذة - إذا وقع هذا لنا ولآبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نثبت أحياء كرة أخرى ، وأن نخرج من الأرض التي اختلط رفاتنا بترابها فصار ترابا ؟

يقولون هذا وتقف هذه الصورة للادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى . وينسون أنهم خلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئا . ولا يدري أحد أين كانت الخلايا والقدرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى . فلقد كانت مفرقة في أطواء الأرض وأعماق البحار وأجواز الفضاء ، فها ما جاء من تربة الأرض ، ومنها ما جاء من عناصر الهواء وللاء ، ومنها ما قدم من الشمس البعيدة ، ومنها ما تنفسه إنسان أو نبات أو حيوان ، ومنها ما انبث من جسد رمّ وتبخرت بعض عناصره في الهواء .. ثم تثلث هذه الخلايا والقدرات في طعام يأكلونه ، وشرباب يشربونه ، وهواء يتنفسونه ، وشعاع يستدفئون به .. ثم إذا هذا الشئ الذي لا يعلم عدده إلا الله ، ولا يحصى مصادره إلا الله ، يتجمع في هيكل إنسان ؟ وهو ينمو من بويضة عاقلة في رحم ، حتى يصير جسدا مسجى في كفن . فهو لاء في خلقهم أول مرة ، فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر في المرة الآخرة ! ولكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما زال يقول اليوم مع شيء من الاختلاف !

هكذا كانوا يقولون . ثم يتبعون هذه القول الجاهلة اللطموسة بالتهكم والاستنكار :

« لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين » .

فهم كانوا يرففون أن الرسل من قبل قد أنفروا آيادهم بالبث والنشور . مما يدل على أن العرب لم تكن أذهانهم خالية من العقيدة ، ولا غفلا من معانيها . إنما كانوا يرون أن الوعود لم تتحقق منذ بعيد ؟ فينبون على هذا استهتارهم بالوعد الجديد قائلين : إنها أساطير الأولين يروها محمد - صلى الله عليه وسلم - غافلين أن الساعة موعدها الذي لا يتقدم لاستعجال البشر ولا يتأخر لرجائهم ، إنما يجيء في الوقت المعلوم لله ، المجهول للعباد في السماوات والأرض سواء . ولقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجبريل - عليه السلام - وهو يسأله عن الساعة :

« ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) .

وهنا يلبس قلوبهم بتوجيهها إلى مصارع الدين كذبوا قبلهم بالوعد وبسمهم المجرمين :

وفي هذا التوجيه توسيع لآفاق تفكيرهم ، فالجيل من البشر ليس مقطوعا من شجرة البشرية ؟ وهو محكوم بالسنة للتحكمة فيها ؟ وماحدث للمجرمين من قبل يحدث للمجرمين من بعد ؟ فإن السنة لا تحيد ولا تعابى . والسير في الأرض يطلع النفوس على مثل وسير وأحوال فيها عبرة ، وفيها تنفتح لنوافذ مضيئة . وفيها لمسات للقلوب قد توقظها وتحياها . والقرآن يوجه الناس إلى البحث عن السنة للطرقة ، وتدبر خطواتها وحلقاتها ، ليمشوا حياة متصلة الأوشاج متمسة الآفاق ، غير متحجرة ولا مغلقة ولا ضيقة ولا منقطعة .

وبعد أن يوجههم هذا التوجيه يأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن ينفذ يديه من أمرهم ، ويدعهم لمسيرهم ، الذي وجههم إلى نظائره ، ألا يضيق صدره بمكرهم ، فإنهم لن يضروه شيئا ، وألا يحزن عليهم فقد أدى واجبه بنجاحهم وأبلغهم وبصرهم .

« ولا تحزن عليهم . ولا تكن في ضيق مما يمكرون » ..

وهذا النص يصور حساسية قلبه - صلى الله عليه وسلم - وحزنه على مصير قومه الذي يعلمه من مصائر للكذابين قبلهم ، ويدل كذلك على شدة مكرهم به وبالدهوة وبالمسلين حتى ليضيق صدره الرحب الكبير .

ثم يمضي في سرد مقولاتهم عن قضية البعث ، واستهاتهم بالوعد بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة :

« ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » ..

(١) من حديث عبد الله ابن عمر . في حقيفة الإسلام والإيمان . أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

كانوا يقولون هذا كله خوفوا بمسائر المجرمين قبلهم ، ومصارعهم التي يمرون عليها مصبحين كقري لوط ، وآثار عمود في الحجر ، وآثار عاد في الأحقاف ، ومساكن سبأ بعد سيل العرم . . كانوا يقولون مستهزئين : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » متى هذا العذاب الذي تخوفونا به ؟ إن كنتم صادقين فها توه ، أو خبرونا بموعده على التحديد !

وهنا يجيء الرد يلقي ظلال المول للتربص ، وظلال التهم للنذر في كلمات قصار :

« قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون » ..

بذلك يشير في قلوبهم الخوف والقلق من شبح العذاب ، فقد يكون وراءهم - رديفا لهم كما يكون الرديف وراء الراكب فوق الهابة - وهم لا يشعرون . وهم في غفلتهم يستعجلون به وهو خلف رديف ! قبالها من مفاجأة ترتش لها الأوصال . وهم يستهزئون ويستهزئون ! ومن يدري . إن العيب المحجوب . وإن الستار المسبل . فما يدري أحد ما وراءه . وقد يكون على قيد خطوات ما يذهل وما يهول ! إنما الماقل من يحذر ، ومن يتبأ ويستعد في كل لحظة لما وراء الستر للسدول !

« وإن ربك لتؤ فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون » ..

وإن فضله ليتجلى في إهمالهم وتأخير العذاب عنهم وهم مذنبون أو مقصرون ، عسى أن يتوبوا إليه ويثوبوا إلى الطريق المستقيم . « ولكن أكثرهم لا يشكرون » على هذا الفضل ، إنما يستهزئون ويستعجلون ، أو يسدرون في غيهم ولا يتدبرون .

« إن ربك ليلم ما تكتن صدورهم وما يعلنون » ..

وهو يهملهم ويؤخر العذاب عنهم ، مع علمه بما تكتنه صدورهم وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم . فهو الإهمال عن علم ، والإهمال عن فضل . وهم بعد ذلك محاسبون عما تكتن صدورهم وما يعلنون .

ويختم هذه الجولة بتقرير علم الله الشامل الكامل ، الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض :

« وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » ..

ويحول الفكر والخيال في السماء والأرض ، وراء كل غائبة . من شيء ، ومن سر ، ومن قوة ، ومن خبر ، وهي مقيدة بعلم الله ، لا تند منها شاردة ، ولا تغيب منها غائبة . والتركيز

في السورة كلها على العلم . والإشارات إليه كثيرة ، وهذه واحدة منها نَحْم بها هذه الجولة .
وبمناسبة الحديث عن علم الله للطلق يذكر ماورد في القرآن من فصل الخطاب فيما
اختلف عليه بنو إسرائيل ، بوصفه طرفا من علم الله للستيقن ، ونموذجا من فضل الله وقضائه
بين المختلفين . ليكون هذا تمزية لرسوله - صلى الله عليه وسلم - وليدعم الله بفصل بينه وبينهم
بقضائه الأخير :

« إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ؛ وإنه لهدى ورحمة
للمؤمنين . إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين .
إنك لا تسمع اللوئ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن
صلاتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ..

ولقد اختلف النصارى في المسيح - عليه السلام - وفي أمه مريم .

قالت جماعة : إن المسيح إنسان محض ، وقالت جماعة : إن الأب والإبن وروح القدس
إن هى إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس . فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة ، الأب
والابن وروح القدس (والإبن هو عيسى) فأنحدر الله الذى هو الأب فى صورة روح القدس
وتجسد فى مريم إنسانا وولد منها فى صورة يسوع ، وجماعة قالت : إن الابن ليس أزليا كالأب
بل هو مخلوق من قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له ، وجماعة أنكروا كون روح
القدس أقنوما ، وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية ، وجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الإبن
وروح القدس مساويان للأب فى وحدة اللاهوت ، وأن الإبن قد ولد منذ الأزل من الأب
وأن الروح القدس منبثق من الأب . وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق
من الابن أيضا . فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه القطعة وظلنا
مختلفين ... فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعا . وقال عن المسيح : إنه
كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر .. « إن هو إلا عبد أئمننا عليه وجعلناه مثلا
لبنى إسرائيل » . وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون .

واختلفوا فى مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف . منهم من قال : إنه صلب حتى مات ودفن
ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء . ومنهم من قال : إن يهوذا أحد حواريه
الذى خانته ودل عليه ألقى عليه شبه المسيح وصلب . ومنهم من قال : ألقى شبهه على الحوارى

سيمون وأخذ به .. وقص القرآن الكريم الحبر اليقين فقال : « وما قلوه وما صلوه ولكن شبه لم » وقال : « ياعيسى إني متوفيك ورافك إلى ومطهرك .. » وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف .

ومن قبل حرف اليهود التوراة وعدلوا تسمياتها الإلهية ؛ فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » ..

وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبياهم ، مجردا من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم ، مطهرا من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتي لم يكذب نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفا .. إبراهيم - بزعمهم - قدم امرأته لأبيالك ملك الفلسطينيين ، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما ويقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب ؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيسو ولوط - بزعمهم - أسكرته ببناء كل منهما ليلة ليضطجع معها لتتجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر . وكان ما أرادتا وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده ، فأرسل هذا الجندي إلى الهالك ليفوز - بزعمهم - بامرأته ؛ سليمان مال إلى عبادة (بعل) بزعمهم . مجازاة لإحدى نساته التي كان يشقها ولا يملك معارضتها ؛

وقد جاء القرآن فظهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة للنزلة ، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم - عليه السلام . وهذا القرآن للهيمن على الكتب قبله الذي يفصل في خلافاً القوم فيها ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه هو الذي يجادل فيه المشركون ، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين ؛

« وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين » ..

« هدى » يقيم من الاختلاف والضلال ، ويوحد التهج ، ويعين الطريق ، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد ، « ورحمة » برحمهم من الشك والقلق والحيرة ، والتخبط بين المناهج والنظريات التي لا تثبت على حال ؛ ويصلهم بالله يطشون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه ، ويمشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم ، ويتبنون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل .

واللهج القرآني منيج فريد في إعادة إنشاء النفوس ، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة ؛ حيث تجدها متسقة مع الكون الذي تعيش فيه ، متمشية مع السنن التي تحكم هذا الكون - في يسر وبساطة ، بلا تكلف ولا تعمل . ومن ثم تستشعر في أعماقها السلام والطمأنينة الكبرى ؛ لأنها تعيش في كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديها ولا يعاديها متى اهتمت إلى مواضع اتصالها به ، وعرفت أن ناموسها هو ناموسه . وهذا التناسق بين النفس والكون ، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشري والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة ، والسلام بين البشر ، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار .. وهذه هي الرحمة في أفضل صورها ومعانيها ..

وبعد هذه الملححة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذي يفصل بين بني إسرائيل في اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسخ عليهم الرحمة .. يقرر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه ، ويعكم بينهم حكمه الذي لا مرد له . حكمه القوي اللبى على العلم اليقين :

« فتوكل على الله إنك على الحق للبين » ..

وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار . سنة لا تتخلف .. قد تبطل . تبطل الحكمة بعلها الله ، وتحقق بها غايات يقدرها الله . ولكن السنة ماضية . وعد الله لا يخلف الله وعده . ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه . ولوعده الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر .

ويمضي في تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتأسيسه على جوارح القوم ولجأهم في العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق في النصح والبيان ، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن .. يمضي في تسليته والتسرية عنه من هذا كله ؛ فهو لم يقصر في دعوته . ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تمى آذانهم فتتحرك قلوبهم ، فيقبلون على الناصح الأمين . فأما الذين ماتت قلوبهم ، وعييت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان ، فلا لهم فيه حيلة ، وليس له إلى قلوبهم سبيل ؛ ولا ضمير عليه في ضلالهم وشرودهم الطويل :

« إنك لا تسمع اللوثى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ..

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة . حالة جود القلب ، وخود الروح ، وبلادة الحس ، وهمود الشعور . فيخرجهم مرة في صورة اللوتى ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعو ، وهم لا يسمعون الدعاء ، لأن اللوتى لا يشعرون ! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعى ، لأنهم لا يسمعون ! ويخرجهم مرة في صورة العمى يمشون في عمام ؛ لا يرون الهادى لأنهم لا يبصرون ! وتترادى هذه الصور المحسمة المتحركة ، فتمثل للمنى وتعمقه في الشعور !

وفى مقابل اللوتى والعمى والصم يقف المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون .

« إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . .

إنما تسمع الدين تهيأت قلوبهم لتلقى آيات الله ، بالحياة والسمع والبصر . وآية الحياة الشعور . وآية السمع والبصر الانتفاع بالسموع وللنظور . وللؤمنون ينتفعون بحياتهم وصمهم وأبصارهم . وعمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو أن يسمعهم ، فيدلهم على آيات الله ، فيستسلمون لنوهم ولخطبتهم « فهم مسلمون » .

إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ؛ فما يكاد القلب السليم يرفه ، حتى يستسلم له ، فلا يشاق فيه . وهكذا يصور القرآن تلك القلوب ، القابلة للهدى ، للسمعة للاستماع ، التى لا تتجادل ولا تمارى بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله ، فتؤمن لها وتستجيب .

بعد ذلك يحول بهم جولة أخرى في أشراف الساعة ، وبمضى مشاهدتها ، قبل الإيقاع الأخير الذى يختم به السورة . . جولة يذكر فيها ظهور الهابة التى تسلك الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية . ويرسم مشهداً للحشر والتبكيك للسكذبيين بالآيات وهم واجهون صامتون . ويعود بهم من هذا المشهد إلى آتق الليل والتهار للمروضتين للأبصار وهم عنها غافلون . ثم يرتد بهم ثانية إلى مشهد القزع يوم ينفض في الصور ، ويوم تسير الجبال وتعرمر السحاب ؛ ويعرض عليهم مشهد المحسنين آمنين من ذلك القزع ، وللسيئين كبت وجوههم في النار :

« وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

« ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال : أكذبتكم بآياتي ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون .

« ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . « ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحمبها جامدة وهي تمر مر السحاب . صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خير بما تعملون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ » . .

وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا في أحاديث كثيرة بعضها صحيح ؛ وليس في هذا الصحيح وصف للدابة . إنما جاء وصفها في روايات لم تبلغ حد الصحة . لذلك نضرب صفحا عن أوصافها ، لما معنى شيئا أن يكون طولها ستين ذراعا ، وأن تكون ذات زغب وريش وحافر ، وأن يكون لها حلية ؛ وأن يكون رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل . وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعام ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير . . . إلخ هذه الأوصاف التي أفتن فيها القسرون !

وحسبنا أن تقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة ؛ وحق القول على الباقيين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك ؛ وإنما يقضى عليهم بما هم عليه . . عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم . والدواب لا تكلم ، ألا يفهم عنها الناس . ولكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الحارقة للنبتة باقتراب الساعة . وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم للوعود .

وبما يلاحظ أن للشاهد في سورة الغل مشاهد حوار وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان عليه السلام . فجاء ذكر « الدابة » وتكليمها الناس متناسقا مع مشاهد

السورة وجوها ، محققا لتناسق التصوير في القرآن ، وتوحيد الجزئيات التي يتألف منها للشهد العام^(١) .

ويسير السياق من هذه العلامة الدالة على اقتراب الساعة ، إلى مشهد الحشر :
« ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون » .
والناس كلهم يحشرون . إنما شاء أن يبرز موقف المكذبين « فهم يوزعون » يساقون أولهم على آخرهم ، حيث لا إرادة لهم ولا وجهة ولا اختيار .
« حق إذا جاءوا قال : أ كذبتهم بآياتي ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ما ذا كنتم تعملون ؟ » .
والسؤال الأول للتخييل والتأنيب . فمروء أنهم كذبوا بآيات الله . أما السؤال الثاني فلهذه الهك ، وله في لغة التخاطب نظائر : أ كذبتهم ؟ أم كنتم تعملون ماذا ؟ فما لكم عمل ظاهر يقال : إنكم قضيتهم حياتكم فيه ، إلا هذا التكذيب للمستكر الذي ما كان ينبغي أن يكون . . . ومثل هذا السؤال لا يكون عليه جواب إلا الصمت والوجوم ، كأنما وقع على المسؤول ما يلجم لسانه ويكبت جنانه :

« ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون » . .

وحق عليهم القضاء بسبب ظلمهم في الدنيا ، وهم واجمون صامتون ذلك على حين نطقت الدابة قبيل ذلك . وهامم الناس لا ينطقون ذلك من بدائع التقابل في التعبير القرآني ، وفي آيات الله التي يعبر عنها هذا القرآن .

ونسق العرض في هذه الجولة ذو طابع خاص ، هو للزوجة بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، والانتقال من هذه إلى تلك في اللحظة المناسبة للتأثر والاعتبار .

وهو هنا يشتمل من مشهد الكذابين بآيات الله ، المبهوتين في ساحة الحشر إلى مشهد من مشاهد الدنيا ، كان جديرا أن يوظف وجدانهم ، ويدعوهم إلى التدبر في نظام الكون وظواهره ، ويلقي في روعهم أن هناك إلها يرعاهم ، ويهيء لهم أسباب الحياة والراحة ، ويخلق الكون متناسبا لحياتهم لا مقاوما لها ولا حربا عليها ولا معارضا لوجودها أو استمرارها :
« ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

(١) يراجع فصل التناسق الفني في كتاب: التصوير الفني في القرآن من ص ٨٦ إلى ص ١٠٧ من الطبعة الثالثة.

ومشهد الليل الساكن ، ومشهد النهار المبصر ، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجدانا
دنيا ينجح إلى الاتصال بالله ، الذى يقلب الليل والنهار ، وهما آيتان كونيتان لمن استمدت
نفسه للإيمان ، ولكنهم لا يؤمنون .

ولو لم يكن هناك ليل فكان النهار كله نهارا لاندمت الحياة على وجه الأرض ؛ وكذلك
لو كان النهار كله ليلا . لابل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط
لحرقت الشمس في النهار كل نبات ، ولتجمد في الليل كل نبات . وعندئذ تستحيل الحياة . ففي
الليل والنهار بحاتهما للوافة للحياة آيات . ولكنهم لا يؤمنون .

ومن آيى الليل والنهار في الأرض ، وحياتهم الآمنة للكفولة في ظل هذا النظام الكونى
المدقيق يمر بهم في ومضة إلى يوم النفخ في الصور ، وما فيه من فزع يشمل السماوات والأرض
ومن فيهن من الخلاق إلا من شاء الله . وما فيه من تسير للجبال الرواسى التى كانت علامة
الاستقرار ؟ وما ينتهى إليه هذا اليوم من ثواب بالأمن والحير ، ومن عقاب بالفزع والكب
في النار :

« ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ؟ وكل
أنواء داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن
كل شيء ، إنه خبير بما تعملون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون .
ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

والصور البوق ينفخ فيه . وهذه هى نفخة الفزع الذى يشمل كل من في السماوات ومن
في الأرض - إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . . قيل هم الشهداء . . وفيها يسعق كل حى
في السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفي هذه يحشر الجميع « وكل أنواء داخرين »
أذلاء مستسلمين .

ويساحب الفزع الانقلاب الكونى العام الذى تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها .
ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية ، وتمركأها السحاب في خفته وسرعته
وتتاثره . ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ؟ وكأنما الجبال

منذورة مع المذعورين ، مفزوعة مع المفزوعين ، هائمة مع الهائمين الحائرين النطقلين بلا وجهة ولا قرار

« صنع الله الذي أتقن كل شيء . »

سبحانه ! يتجلى إتهان صنمته في كل شيء في هذا الوجود . فلا فلتة ولا مصادفة ، ولا ثغرة ولا نقص ، ولا خاوت ولا نسيان . ويتدبر للتدبر كل آثار الصنعة للمجزة ، فلا يشر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير ولا حساب . في الصغير والكبير ، والجليل والحقيق . فكل شيء بتدبير وتقدير ، يدير الرؤوس التي تتأهب وتملاه^(١) .

« إنه خير بما تعملون » . .

وهذا يوم الحساب عما تعملون . قدره الله الذي أتقن كل شيء . وجاء به في موعده لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ! ليؤدي دوره في سنة الخلق عن حكمة وتدبير ؟ وليحقق التناسق بين العمل والجزاء في الحياتين للتصالحين التسكاملتين ، « صنع الله الذي أتقن كل شيء . إنه خير بما تعملون » .

في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمانية من الفرع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا ، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر :
« من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزرع يومئذ آمنون » .

والأمن من هذا الفرع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنه . ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفرع الآخرة . بل أمنهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله .

« ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار » . .

وهو مشهد مفزع . وهم يكونون في النار على وجوههم . ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ !
« هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ » . .

فقد تسكبوا الهدى ، وأشاحوا عنه بوجوههم ؟ فهم يجزون به كذا لهذه الوجوه في النار وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار .

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شيء قديره تقديرا » في سورة الفرقان . الجزء التاسع عشر .

وفي النهاية تحيى الإقاعات الأخيرة : حيث يلخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعوته ومنهجه في الدعوة ؛ ويكلهم إلى مصيرهم الذى يرتضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان ؛ ويختم بحمد الله كما بدأ ، ويدعهم إلى الله يكشف لهم آياته ، ويحاسبهم على ما يعملون :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين ؛ وأن أتلو القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلّ قتل : إنما أنا من النذرين . وقل : الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بظافل عما تعملون » ..

وهم كانوا يدينون بحرمة البلدة الحرام والبيت الحرام ؛ وكانوا يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت ؛ ثم لا يوحّدون الله الذى حرّمه وأقام حياتهم كلها عليه .

فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يقوم العقيدة كما ينبغي أن تقوم ، فيعلن أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها ، لا شريك له ؛ ويكمل التصور الإسلامى للألوهية الواحدة ، قرب هذه البلدة هو رب كل شيء فى الوجود « وله كل شيء » ؛ يعلن أنه مأمور بأن يكون من المسلمين . للمسلمين كل ما فهم له . لا شركة فيهم لسواه . وهم الرعيى للمتد فى الزمن المتطاوّل من اللوحدين للتسليين .

هذا قوام دعوته . أما وسيلة هذه الدعوة فهى تلاوة القرآن :

« وأن أتلو القرآن » ..

فالقرآن هو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك . وقد أمر أن يجاهد به الكفار . وفيه وحده القضاء فى جهاد الأرواح والعقول . وفيه ما يأخذ على النفوس أقطارها ، وعلى للمشاعر طرقها ؛ وفيه ما يزيل القلوب الجاسية ويهزها هذا لا تبقى معه على قرار . وما شرع القتال بعد ذلك إلا لحماية المؤمنين من الفتنة ، وضمان حرية الدعوة بهذا القرآن ، والقيام على تنفيذ الشرائع بقوة السلطان . أما الدعوة ذاتها فحسبها كتابها .. « وأن أتلو القرآن » .

« فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضلّ قتل : إنما أنا من النذرين » ..

وفى هذا تتمثل فردية التبعة فى ميزان الله ، فيما يختص بالهدى والضلال . وفى فردية التبعة تتمثل كرامة هذا الإنسان ، التى يضمنها الإسلام ، فلا يساق سوق القطيع إلى الإيمان . إنما

هى تلاوة القرآن ، وتركه يعمل عمله فى النفوس ، وفق منهجه الدقيق العميق ، الذى يخاطب
القطرة فى أعماقها ، وفق ناموسها المتسق مع منهج القرآن .
« وقل : الحمد لله » مقدمة لما يتحدث عنه من صنع الله :

« سيركم آياته فتعرفونها » ..

وصدق الله . فى كل يوم يرى عباده بعض آياته فى الأنفس والآفاق . ويكشف لهم عن
بعض أسرار هذا الكون الحافل بالأسرار .
« وما ربك بنافل عما تعملون » ..

وهكذا يلقي إليهم فى الحتام هذا الإيقاع الأخير ، فى هذا التميز المفوف . اللطيف .
الخشيف .. ثم يدعمهم يعملون ما يعملون ، وفى أنفسهم أثر الإيقاع العميق : « وما ربك بنافل
عما تعملون » ..

سُورَةُ الْقَصَصِ مَكِّيَّةٌ
قَالَاسُهَا ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * تَتْلُو عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ، يَسْتَضِيعُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يَذَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَضِيعُ نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَشْيَةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُنَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ .

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

« فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِلِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُوَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَئِكَ لَا تَفْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

« وَأَسْبَحَ قُوَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَارِعًا إِذْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْتَوَمِّينَ * وَقَالَتِ لِأَخْتِهِ : قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

« وَحَرَّوْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ، قَالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِهِ كَمِثْلِ نَفَرٍ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .
« وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ : هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَنَّاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَّرَهُ مُوسَىٰ وَقَفَّىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ : هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَمَتَ عَلَىٰ نَفْسِي أَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ .

« فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَىٰ : إِنَّكَ لَنفَوٍّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْبَطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَكُمَا قَالَ : يَا مُوسَىٰ أَمْرٌ يُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَنِي كَمَا فَعَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ .

« وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ : يَا مُوسَىٰ إِنَّ التَّلَاءُ يَا تَبْرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

« وَلَمَّا تَوَجَّهَ رِثْقًا مَذِينٌ قَالَ : هَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ .

« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا

شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قَبِيرٌ .
 « فَجَاءَهُهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ : لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ *
 قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ : ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ عَلَى مَا قُولُ وَكِيلٌ .

« فَلَمَّا قَفَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، تَلَوْنِي أَنْتُمْ مِنْهَا بِخَيْرٍ أَوْ جَذْوَةٌ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ .

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ، مِنَ الشَّجَرَةِ :
 أَنْ يَأْمُرْهُمُ إِلَى أَنَا اللَّهُ رَبُّ السَّالِّينَ * وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَأْمُرْهُ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ، فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ أَنْبَيْكُمَا النَّارِيُّونَ .

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى، وَمَا نَسْمَعُ
بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى: رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ
تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلِهِ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْلِعُ
إِلَى آلِهِ مُوسَى، وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ، فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَتَمَّةً يَذْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا
يُنصَرُونَ * وَأَنْتَبَهْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى، بَصَائِرَ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

هذه السورة مكية ، نزلت والسايمون في مكة قلة مستضفة ، والشركون هم أصحاب
الحول والطول والجاه والسلطان . نزلت تضع للموازين الحقيقية للقوى والقيم ، نزلت
تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود ، هي قوة الله ؛ وأن هناك قيمة واحدة
في هذا الكون ، هي قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ولو كان
جردا من كل مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته
جميع القوى ؛ ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافه
شيء أصلا .

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء ، وقصة فارون مع قومه -
قوم موسى- في الختام . . الأولى تمرض قوة الحكم والسلطان . قوة فرعون الطاغية للتجبر
اليقظ الخنصر ؛ وفي مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة ، ولا ملجأ له ولا وقاية .
وقد علا فرعون في الأرض ، وأخذ أهلها شيئا ، واستضعف بنو إسرائيل ، يذبح أبناءهم ،

ويستحي نساءهم ، وهو على حذر منهم ، وهو قايض على أعناقهم . ولكن قوة فرعون وجبروته ، وحذره ويقلته ، لا تقى عنه شيئا ؛ بل لا يمكن له من موسى الطفل الصغير ، المجرى من كل قوة وحيلة ، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين المنايا ، وتدفع عنه السوء ، وتسمى عنه العيون ، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا ، فتدفع به إلى حجره ، وتدخل به عليه عرينه ، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه ، مكفوف الأذى عنه ، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه !

والقصة الثانية تمرض قيمة المال ، ومعها قيمة العلم . للمال الذى يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته ، وهم يعلمون أنه أوقى من المال ما لن مفاتحه لتعي الصبة من الرجال الأقوياء . والعلم الذى يمتز به قارون ، ويعسب أنه بسببه وعن طريقه أوتى ذلك المال . ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه ، ولا تستخفهم زينته ؛ بل يتطلعون إلى ثوابه اقه ، ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض ، لا يقى عنه ماله ولا يقى عنه عله ؛ وتتدخل تتدخلا مباشرا سافرا كما تدخلت في أمر فرعون ، فألقت في اليم هو وجنوده فكان من للفرقين .

لقد بنى فرعون على بنى إسرائيل واستطاع بجهروت الحكم والسلطان ؛ ولقد بنى قارون عليهم استطال بجهروت العلم والمال . وكانت النهاية واحدة ، هذا خسف به وبداره ، وذلك أخذه اليم هو وجنوده . ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة . إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدا للبنى والفساد ، حينما عجز الناس عن الوقوف للبنى والفساد .

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصالح حسيما ؛ وغشى من الفتنه بالأس والفتنة بالمال . عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متعددة ، بلا ستار من الخلق ، ولا سبب من قوى الأرض ، لتضع حدا للشر والفساد ^(١) .

(١) سبق أن قلت في تفسير سورة طه في صفحة ٩٨ من الجزء السادس عشر :

« إنه حين كان بنو إسرائيل يؤذون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤذون هذه الضريبة إلا ذلا واستكائة وخوفا . فأما حين استملن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال المنيب ، ثم رفوعو الرؤوس بجهرون بكلمة الإيمان —

وبين القصتين يحول السياق مع للشركيين جولات يصرم فيها بدلالة القصص - في سورة القصص - ويفتح أيسارهم على آيات الله للثبوتة في مشاهد السكون تارة ، وفي مصارع النابرين تارة ، وفي مشاهد القيامة تارة .. وكلها تؤكد المبرر للاستفادة من القصص ، وتساقطها وتناسق معها ؛ وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تبدل على مدار الزمان . وقد قال الشركون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » . فاعتندوا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم ، لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التي من أجلها يخضع الناس لهم ، ويعظمون البيت الحرام ويدبنون للقائمين عليه .

فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون ، تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله ، ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ؛ وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ؛ وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكددها .

وعقب على معالمتهم « أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون » .. يذكرهم بأنه هو الذي آمنهم من الخوف فهو الذي جعل لهم هذا الحرم الآمن ؛ وهو الذي يديم عليهم أمنهم ، أو يسلبهم إياه ؛ ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر : « وكم من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين » .

ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا . وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك للكاذبين بعد مجيء النذير : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » .

== في وجه فرعون دون تلجلج ، ودون تخرج ، ودون اتهام التوبيخ . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المركة ، وإعلان النصر التي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب » .
والتي قلته هنا أصح ، بتعمدة سياق القصة في هذه السورة . وإن كان لا قلت في سورة طه مكانه بتغيير في العبارة . فإن يد القدرة تدخلت منذ أول الأمر لإدارة المركة . ولكن النصر النهائي لم يتم تمامه إلا بعد استئذان الإيعان في قلوب الذين آمنوا بموسى بعد رسالته ، وجعلوا بكلمة الحق في وجه الظالمين الذي للتجبر .

ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد ؛ فيصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا ؛ وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان .

وتنتهى السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذى فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه ، لا بد رادّه إلى بلده ، ناصره على الشرك وأهله . وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها ؛ وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذى أخرجه منه المشركون . سيمود آمنا ظافرا مؤيدا . وفى قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكد . فقد عاد موسى - عليه السلام - إلى البلد الذى خرج منه خائفا طريدا . عاد فأخرج معه بنى إسرائيل واستنقذهم ، وهلك فرعون وجنوده على أيدي موسى وقومه الناجين .. ويختتم هذا الوعد ويختتم السورة مع بالإيقاع الأخير :

« ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون » .

هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة ، فلنأخذ فى تفصيل أشواطها الأربعة : قصة موسى . والتعقيب عليها . وقصة قارون . وهذا الوعد الأخير ...

تبدأ السورة بالأحرف للقطعة :

« ط . سين . ميم » .. تلك آيات الكتاب المبين » ..

تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف ، فى لغة البشر الفانين :

« تلك آيات الكتاب المبين » ..

فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر ، وهم لا يستطيعونه ؛ إنما هو الوحي الذى يتلوه الله على عبده ، ويبدو فيه إعجاز صنعته ، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة فى الكبير والصغير :

« تناو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » ..

فلما القوم للمؤمنين يوجه هذا الكتاب ؟ يريهم به وينشئهم ويرسم لهم التهاج ، ويشق لهم الطريق . وهذا القصص التلو في السورة ، مقصود به أولئك المؤمنين ، وهم به يتفهمون . وهذه التلاوة المباشرة من الله ، تلي خلال الناية والاهتمام بالمؤمنين ؟ وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة . وكيف ؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ، ولهم ؟ بصفتهم هذه التي تؤهلهم لتلك الناية الكريمة : « لقوم يؤمنون » .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ في عرض النبأ . نبأ موسى وفرعون . يبدأ في عرضه منذ أول حلقة في القصة - حلقة ميلاده - ولا تبدأ مثل هذا البدء في أية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها . ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى ، والظروف القاسية التي ولد فيها ؟ وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة ؟ وضف قومه واستذلهم في يد فرعون . . ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيسي ؟ ويرز يد القدرة سافرة متجدبة تعمل وحدها بدون ستار من البشر ؟ وتضرب الظلم والطغيان والبنى ضربة مباشرة عند ما يعجز عن ضربها البشر ؟ وتصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة ؟ وتمسك للمؤمنين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية . وهو اللق الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتأييده ؟ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيفائه .

ولقد كانت قصة موسى - عليه السلام - تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة - لا من حلقة الميلاد - حيث يقف الإيمان القوى في وجه الطغيان الباغى ؟ ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية . فأما هنا فليس هذا اللق هو المقصود ؛ إنما المقصود أن الشر حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته ؟ والبنى حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر ؟ بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين للمتدى عليهم ، فتقذم وتنتقد عناصر الخير فيهم ، وتريمهم ، وتجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوارثين .

فهذا هو الغرض من سوق القصة في هذه السورة ؛ ومن ثم عرضت من الحلقة التي تؤدي هذا الغرض وتبرزه ، والقصة في القرآن تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا الغرض . فهي أداة تربية للنفوس ، ووسيلة تقرير لمان وحقائق ومبادئ . وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه ، وتتعاون في بناء القلوب ، وبناء الحقائق التي تعمّر هذه القلوب .

والحلقات المروضة من القصة هنا هي : حلقة مولد موسى - عليه السلام - وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته . وحلقة فتوته وما آتاه الله من الحكم والعلم ، وما وقع فيها من قتل القبطي ، وتأمر فرعون ومثله عليه ، وهربه من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه فيها ، وقضاء سنوات الخدمة بها . وحلقة النداء والتكليف بالرسالة . ثم مواجهة فرعون ومثله وتكذيبهم لموسى وهارون . والعاقبة الأخيرة - الفرق - مختصرة سريعة .

ولقد أطلال السياق في عرض الحلقة الأولى والحلقة الثانية - وهما الحلقتان الجديدتان في القصة في هذه السورة - لأنهما تكشفان عن تحدى القدرة السافرة للطغيان الباغي . وفيها يتجلى هجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ : « ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

وهي طريقة القرآن في عرض القصة ، قسمها إلى مشاهد ؛ وجعل بينها فجوات فنية بماؤها الخيال ، فلا يغوت القارئ شيء من الأحداث والمناظر التروكة بين المشهد والمشهد ، مع الاستمتاع الفني بحركة الخيال الحية .

وقد جاءت الحلقة الأولى في خمسة مشاهد . والحلقة الثانية في تسعة مشاهد والحلقة الثالثة في أربعة مشاهد . وبين الحلقة والحلقة فجوة كبيرة أو صغيرة . وبين كل مشهد ومشهد ، كما يسدل الستار ويرفع عن المنظر أو المشهد .

وقبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث ، والظرف الذي يجري فيه القصص ، ويكشف عن الغاية الخبوء وراء الأحداث ، والتي من أجلها يسوق هذا القصص . . وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصة . تساق موضوعها وأهدافها في هذا الموضع من القرآن :

« إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستخف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ..

وهكذا يرسم للسر الذي تجري فيه الحوادث ، وتكشف اليد التي تجريها . وتكشف

مهما الناية التي توخاها . وانكشف هذه اليد ، وبروزها سافرة بلا ستار منذ اللحظة الأولى مقصود في سياق القصة كلها ، متمش مع أبرز هدف لها . ومن ثم تبدأ القصة هذا البدء . وذلك من بدائع الأداء في هذا الكتاب العجيب .

ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده ، فالتحديد التاريخي ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية ؛ ولا يزيد في دلالتها شيئا . ويمكن أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف — عليه السلام — الذي استقدم أباه وإخوته . وأبوه يعقوب هو « إسرائيل » وهؤلاء كانوا ذرية . وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعبا كبيرا . فلما كان ذلك الفرعون الطاغية « علا في الأرض » وتكبر ونجبر ، وجعل أهل مصر شعبا ، كل طائفة في شأن من شئونه . ووقع أشد الاضطهاد والبغى على بني إسرائيل ، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه ؟ فعم يدينون بدين جدم إبراهيم وأبيهم يعقوب ؟ ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف ، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بالله واحد ؛ وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعا .

وكذلك أحس الطاغية أن هناك خطرا على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة في مصر ؛ ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف ، فقد يصبحون إلبا عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين القراعنة الحروب ، فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعبده ولا تعتقد بألوهيته ، تلك هي تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال ، واستذلالهم وتعميدهم بشق أنواع العذاب . وبعد ذلك كله تديس الذكور من أطفالهم عند ولادتهم ، واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم . وبذلك يضمن قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث ، فوق ما يصبه عليهم من نكال وعذاب .

وروي أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوايل مولدات يغيرنه بمواليد بني إسرائيل ، ليأدر يذبح الذكور ، فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة ، التي لا تستشر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة .

هذه هي الظروف التي تجري فيها قصة موسى — عليه السلام — عند ولادته ، كما وردت في

هذه السورة :

« إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستتصنف طائفة منهم فيذبح أبناءهم ويستجحي نساءهم . إنه كان من اللقدين » ..

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون ؟ ويقدر غير ما يقدر الطاغية . والطاعة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم ، فينسبون إرادة الله وتقديره ؟ وبحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون . ويظنون أنهم على هذا وذلك قادرين . والله يعلم هنا إرادته هو ، ويكشف عن تقديره هو ؟ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما ، بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم قليلا :

« وزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .
فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواء البشع الكثير ، فيذبح أبناءهم ويستجحي نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب والفساد . وهو مع ذلك يحذرهم ويحافظهم على نفسه وملكه ؟ فيث عليهم العيون والأرصاد ، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلهم إلى الشفار كالجزائر هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بيهانه من غير تحديد ؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيدا ولا تابعين ؛ وأن يورثهم الأرض المباركة (التي أعطاهم إياها عند ما استحقوها بذلك بالإيمان والصلاح) وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخين الأقدام مطمئنين . وأن يحقق ما يحذرهم فرعون وهامان وجنودهما ، وما يتخذون الحيلة دونه ، وهم لا يشعرون !

هكذا يعلم السياق قبل أن يأخذ في عرض القصة ذاتها . يعلم واقع الحال ، وما هو مقدار في السلك . ليقف القوتين وجهها لوجه : قوة فرعون للتنفخ للفتنة التي تبدو للناس فادرة على الكثير . وقوة الله الحقيقية الهائلة التي تنهوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التي ترهب الناس !

ويرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ في عرضها . والقلوب معلقة بأحداثها ومآجراتها ، وما ستنهى إليه ، وكيف تصل إلى تلك النهاية التي أعلنها قبل البدء في عرضها . ومن ثم تنبض القصة بالحياة ؛ وكأنها تعرض لأول مرة ، على أنها رواية معروضة الفصول ، لا حكاية عبرت في التاريخ . وهذه ميزة طريقة الأداء القرآنية بوجه عام .

ثم بدأ القصة . وبدأ التحدى وتكشف يد القدرة تعمل سافرة بلاستار :

لقد ولد موسى في ظل تلك الأوضاع القاسية التي رجعها قبل البدء في القصة ؛ وله والخطر محقق به ، والموت يثلث عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه ، تهم أن تحز رأسه .

وهاهى ذى أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين . هاهى ذى بطفلها الصغير في قلب الخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجب صوته القطرى أن يسم عليه ؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة.. هاهى ذى وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة .

هنا تدخل يد القدرة ، فتصل بالأم الوجهة القلقة للندعورة ، وتلقى في روعها كيف تعمل ، وتوحى إليها بالتصرف :

« وأوحنا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى » ..

يا لله ! يا للقدرة ! يا أم موسى أرضعيه . فإذا خفت عليه وهو في حضنك . وهو في رعايتك . إذا خفت عليه وفي له نديك ، وهو تحت عينيك . إذا خفت عليه « فألقيه في اليم » ١١

« ولا تخافى ولا تحزنى » إنه هنا . في اليم . في رعاية اليد التي لأمن إلا في جوارها ، اليد التي لا خوف معها . اليد التي لا تخرب المخاوف من حماها . اليد التي تجعل النار بردا وسلاما ، وتجعل البحر ملجأ ومناما . اليد التي لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعا أن يدنوا من حماها الآمن العزيز الجنب .

« إنا رادوه إليك » .. فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده .. « وجاعلوه من المرسلين » .. وتلك بشارة القد ، ووعد الله أصدق القائلين .

هذا هو للشهد الأول في القصة . مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة للمهوفة تتلقى الإيحاء للمطمئن البشر للثبث للريح . وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردا وسلاما . ولا يذكر السياق كيف تلقت أم موسى ، ولا كيف نفذته . إنما يسدل الستار عليها ، ليرفمه فإذا نحن أمام المشهد الثانى :

« فالتقطه آل فرعون » ..

أهذا هو الأمن ؟ أهذا هو الوعد ؟ أهذه هي البشارة ؟

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون ؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون ؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع في أيدي آل فرعون ؟

نم اولسكنها القدرة تتحدى ، تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة . تتحدى فرعون وهامان وجنودهما . إنهم ليتبعون الله كور من مواليد قوم موسى خوفا على ملكهم وعرشهم وذواتهم . ويثبون السيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكر .. فما هي ذى يد القدرة تلقى في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر . وأى طفل ؟ إنه الطفل الذى على يديه هلاكهم أجمعين ! هاهى ذى تلقيه في أيديهم مجردا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أوحى يستنجد ! هاهى ذى تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح للتجبر ، ولا تقبه فى البحث عنه فى يوت بنى إسرائيل ، وفى أحضان نسائهم الوالدات ! ثم هاهى ذى تعلن عن مقصدها سافرة متحدية :

« ليكون لهم عدوا وحزنا » .

ليكون لهم عدوا يتحداهم وحزنا يدخل الهم على قلوبهم :

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » ..

ولكن كيف ؟ كيف وهاهو ذا بين أيديهم ، مجردا من كل قوة ، مجردا من كل حيلة ؟ لنضع السياق يجب :

« وقالت امرأة فرعون : قرّة عين لى ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولدا ! وهم لا يشعرون » ..

لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته ، بعدما اقتحمت به عليه حصنه . لقد حتمته بالهبة . ذلك الستار الرقيق الشفيف . لا بالسلاح ولا بالجاء ولا بالمال . حتمته بالحب الحانى فى قلب امرأة . وتحدث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره .. وهان فرعون على الله أن يعمى منه الطفل الضعيف بنير هذا الستار الشفيف !

« قرّة عين لى ولك » ..

وهو الذى تدفع به يد القدرة إليهم ليكون لهم - فبا عدا المرأة - عدوا وحزنا ! « لا تقتلوه » ..

وهو الذى على يده مصرع فرعون وجنده !

« عسى أن ينقذنا أو يتخذنا وليدا .. »

وهو الذى تخيّر لهم الأقدار من ورائه ما حذروا منه طويلا !

« وهم لا يشعرون » . .

فيا للقدرة القادرة التى تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون !

وينتهى للشهد الثانى ويسدل الستار عليه إلى حين .

ذلك شأن موسى . فما بال أمه الوالدة وقلبا للهوف ؟

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا . إن كادت لتبدي به . لولا أن ربطنا على قلبها لتكون

من المؤمنين . وقالت لأختها : قصيه » . .

لقد سمعت الإخبار ، وألقت بطفلها إلى الماء . ولكن أين هو ياترى وماذا فعلت به
الأمواج ؟ ولعلها سألت نفسها : كيف ؟ كيف أمنت على فلة كبدى أن أقذف بها فى اليم ؟
كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أم ؟ كيف طلبت له السلامة فى هذه الخافة ؟ وكيف استسلمت
لذلك الهاتف الغريب ؟

والتمير القرآنى يصور لنا فؤاد الأم للسكينة صورة حية : « فارغا » . . لا عقل فيه

ولا وعى ولا قدرة على نظر أو تصرف !

« إن كادت لتبدي به » . . وتذيع أمرها فى الناس ، وتهتف كالهجنونة : أنا أضته . أنا

أضنت طفلى . أنا ألقيت به فى اليم اتباعا لهاتف غريب !

« لولا أن ربطنا على قلبها » . . وعددنا عليه وثبتها ، وأمسكنا بها من الميام والشرود .

« لتكون من المؤمنين » . . للؤمنين بوعده الله ، الصابرين على ابتلائه ، السائرين

على هداه .

ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة !

« وقالت لأختها : قصيه » . . ابغى أثره ، واعرفى خبره ، إن كان حيا ، أو أكلته دواب

البحر أو وحوش البر . أو أين مقره ومرسأه ؟

ودعبت أخته تقص أثره فى جذر وخفية ، وتتلسخبر فى الطرق والأسواق . فلذا بها

تعرف أين ساقته القدرة التي ترعاه ؟ وتبصر به عن بعد في أيدي خدم فرعون يحشون له عن ثدى للرضاع :

« فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمتنا عليه للراضع من قبل . فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ » .

إن القدرة التي ترعاه تدبر أمره ، وتكيد به لفرعون وآله ؟ فتجعلهم يلتقطونه ، وتجعلهم يحبونه ، وتجعلهم يحشون له عن ظهر ترضعه ، وتحرم عليه المراضع ، لتدعهم يختارون به ؟ وهو برفض الثدي كلما عرضت عليه ، وهم يحشون عليه الموت أو الديول ! حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لحفهم على مرضع ، فتقول لهم : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » ؟ فيتلففون كلماتها ، وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب !

ويشهى للشهد الرابع ؟ فنجدها أمام للشهد الخامس والأخير في هذه الحلقة . وقد عاد الطفل الغائب لأمه لللهوقة . معافى في بدنه ، مرموقاً في مكانته ، بحمية فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قدير . وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تديرها العجيب :

« فرددناه إلى أمه ، كي تفر عينها ولا تحزن ، ولتلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .



ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى - عليه السلام - والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتياله . فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه . ولا كيف تربى في قصر فرعون . ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة . ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شب وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية في الحلقة الثانية . ولا كيف كانت عقيدته ، وهو الذي يصنع على عين الله ، ويمد لوظيفته ، في وسط عباد فرعون وكهنته . .

يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى ،

قد آتاه الله الحكمة والعلم ، وجزاه جزاء المحسنين :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزي المحسنين » ..

وبلوغ الأشد أكتال القوى الجسمية . والاستواء أكتال النضوج العضوي والعقلي . وهو يكون عادة حوالى سن الثلاثين . فهل ظل موسى في قصر فرعون ، ريبا ومتبني لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن ؟ أم إنه اقترق عنهما ، واعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة بمجتبة كنفس موسى - عليه السلام - ؟ وبخاصة أن أمه لابد أن تكون قد عرفت من هو ومن قومه وما ديانتهم . وهو يرى كيف يسام قومه الحسف البشع والظلم الشنيع ، والبنى اللثيم ؟ وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم .

ليس لدينا من دليل . ولكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئا من هذا كما سيحيى ؛ والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم : « وكذلك نجزي المحسنين » يشي كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته وهذا من عدوه ؟ فاستأثنه الذي من شيعته على الذي من عدوه ؟ فوكزه موسى قفصا عليه . قال : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال : رب إنى ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال : رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين » .. ودخل المدينة . . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ . . فمن أى مكان جاء فدخلها ؟ وهل كان من القصر في عين شمس ؟ أم إنه كان قد اعتزل القصر والعاصمة ، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها ، في وقت الظهيرة مثلا حين تنفو العيون ؟

لقد دخل المدينة على كل حال « فوجد فيها رجلين يقتتلان . هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستأثنه الذي من شيعته على الذي من عدوه » ..

وقد كان أحدهما قبطيا - يقال إنه من حاشية فرعون ، ويقال إنه طبايح القصر . والآخر إسرائيل . وكانا يقتتلان . فاستأثن الإسرائيلي بموسى مستجدا به على عدوهما القبطي . فكيف وقع هذا ؟ كيف استأثن الإسرائيلي بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال

فرعون ؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال في القصر ، متبني ، أو من الحاشية . إنما يقع إذا كان الإسرائيلي على ثقة من أن موسى لم يمد متصلاً بالقصر ، وأنه قد عرف أنه من بني إسرائيل . وأنه نأف على الملك والحاشية ، منتصر لقومه المضطهدين . وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى - عليه السلام - فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء في مستنقع الشر والفساد . .

« فوكزه موسى فقضى عليه » . .

والوكر الضرب بجمع اليد . وللقهوم من التعبير أنها وكرة واحدة كان فيها حنف القبطي . بما ينشئ بقوة موسى وقوته ، ويسور كذلك انفعاله وغضبه ؛ ويمر عما كان يخالجه من الضيق وفرعون ومن يتصل به .

ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي ، ولم يمدد إلى القضاء عليه . فأكاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشيطان وغوايته ؛ فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان :

« قال : هذا من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين » . .

ثم استطرد في فزع مما دفعه إليه الغضب ، يشترف بظلمه لنفسه أن يحملها هذا الوزر ، ويتوجه إلى ربه ، طالباً مغفرته وعفوه :

« قال : رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي » . .

واستجاب الله إلى ضراسته ، وحساسيته ، واستغفاره :

« فغفر له . إنه هو الغفور الرحيم » . .

وكأنما أحس موسى بقلبه للرهدف وحسه للتوفز في حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له . والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء ، فور الدعاء ، حين يصل إرغافه وحساسيته إلى ذلك للمستوى ؛ وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد . . وارتضى وجدانه موسى - عليه السلام - وهو يستشعر الاستجابة من ربه ، فإذا هو يقطع على نفسه عهداً ، يده من الوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه :

« قال : رب بما أنعمت عليّ قلن أكون ظهيراً للمجرمين » . .

فهو عهد مطلق ألا يقف في صف المجرمين ظهيرا ومعينا . وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها . حتى ولو كانت اندفاعا تحت تأثير التيقظ ، ومرارا الظلم والبغى . ذلك بحق نعمة الله عليه في قبول دعائه ؟ ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم التي آتاه الله من قبل .

وهذه الارتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف ، تصور لنا شخصية موسى — عليه السلام — شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع . وسنلتقي بهذه السمة البارزة في هذه الشخصية في مواضع أخرى كثيرة .

بل نحن نلتقي بها في الشهد الثاني في هذه الحلقة مباشرة :

« فأصبح في المدينة خائفا يترقب ؛ فلذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : إنك لقوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لها قال : يا موسى أريد أن تتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » ..

لقد انتهت المركة الأولى بالقضاء على القبطى ، وندم موسى على فعلته ، وتوجهه إلى ربه ، واستغفاره إياه ، ومغفرته له ، وعهده على نفسه ألا يكون ظهيرا للمجرمين .

ومر يوم وأصبح في المدينة خائفا من انكشاف أمره ، يترقب الاقتضاح والأذى . ولفظ « يترقب » يصور هيئة القلق الذي يتلف وتوجس ، ويتوقع الشر في كل لحظة . . وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك . والتميز بحسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، كما أنه يضمنهما بكلحق « في المدينة » فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة ، فإذا كان خائفا يترقب في المدينة ، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر !

وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن في هذا الوقت من رجال القصر . وإلا لما أُرخص أن يزهد أحد رجال القصر نفسا في عهود الظلم والظلمانيان ! وما كان ليخشى شيئا فضلا على أن يصبح « خائفا يترقب » لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره .

وبينما هو في هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع : « فلذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه » !

إنه صاحبه الإسرائيلي الذي طلب بالأمس نصرته على القبطى . إنه هو مشتبكا مع قبطى آخر ؛ وهو يستمرخ موسى لينصره ؛ ولعله يريد منه أن يقضى على عدوها المشترك بركة أخرى ! ولكن صورة قتل الأمس كانت ما تزال تغايل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذى يتوقع معه فى كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو يفعل على هذا الذى يستصرخه ، ويسفه بالقواية والفضال :

« ذل له موسى : إنك لغوى مبين » ..

غوى بمرآكه هذا الذى لا ينتهى واشتبا كانه التى لا تثمر إلا أن تثير الثائرة على بنى إسرائيل . وهم عن الثورة السكاملة عاجزون ، وعن الحركة للثمرة ضغفاء . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التى تضر ولا تفيد .

ولكن الذى حدث أن موسى - بعد ذلك - انفعلت نفسه بالتيظ من القبطى ، فاندفع يريد أن يقضى عليه كما قضى على الأول بالأمس ! ولهذا الاندفاع دلالة على تلك السمة الاتصالية التى أشرنا إليها ، ولكن له دلالة من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى - عليه السلام - بالتيظ من الظلم ، والنعمة على البنى ، والضيق بالأذى الواقع على بنى إسرائيل ، والتوفز لرد العدوان الطاغى ، الطويل الأمد ، الذى يحضر فى القلب البشرى مسارب من التيظ وأخاذيد .

« فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لها ، قال : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » ..

وإنه ليقع حينئذ يشتد الظلم ، ويفسد المجتمع ، وتحتل الموازين ، وبغيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذى يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ؛ ويفسد القطرة العامة حتى يرى الناس الظلم فلا يثرون عليه ، ويرون البنى فلا يجيش نفوسهم لدمه ؛ بل يقع أن يصل فساد القطرة إلى حد إنكار الناس على للظلم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ؛ ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره « جبارا فى الأرض » . كما قال القبطى لموسى . ذلك أنهم ألقوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون ، حتى وهووا أن هذا هو الأصل ، وأن هذا هو الفضل ، وأن هذا هو الأدب ، وأن هذا هو الخلق ! وأن هذا هو الصلاح ! فإذا رأوا مظلوما يدفع الظلم عن

نفسه ، فيحطم السياج الذى أقامه الظنيان لحماية الأوضاع التى يقوم عليها . . إذا رأوا مظلوما
يحب لتعطيم ذلك السياج المصطنع الباطل ولولوا ودهشوا ، وسموا هذا المظلوم الذى يدفع
الظلم سفاكا أو جبارا ، وصبوا عليه لومهم وتقمته . ولم ينل الظالم الطاغى من تقمته ولومهم
إلا القليل ، ولم يجدوا للمظلوم عذرا - حتى على فرض تهوره - من ضيقه بالظلم الثقيل !
ولقد طال الظلم بينى إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى - عليه السلام - حتى رأيناه يندفع
فى المرة الأولى ويندم ، ثم يندفع فى المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليسكاد بفعله ، وهم أن يعطش
بالذى هو عدو له ولقومه .

لذلك لم يتخل الله عنه ، بل رعاه ، واستجاب له ، فألله العلم بالنفوس يعلم أن للعاطفة البشرية
حدا فى الاحتمال . وأن الظلم حين يشتد ، وتغلق أبواب النصفة ، يندفع المضطهد إلى المحبوم
والاقتحام . فلم يهول فى وصف الفعلة التى فعلها موسى ، كما تهول الجماعات الشريرة
التي مسخ الظلم فطرتها يلزاه مثل هذا العمل الفطرى مهما تجاوز الحدود تحت الضغط
والكظم والضيق .

وهذه هى المرة التى تستشف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين وما تلاهما ، فهو
لا يبرر القلة ولكنه كذلك لا يضحكها . ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع
موسى بدافع العصية القومية . وهو المختار ليكون رسول الله ، للصنوع على عين الله . . أو
له كان لأنه استجبل الاشتباك بصنائع الظنيان ؟ والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة
التي قضاه ، حيث لا نجدى تلك الاشتباكات الفردية الجانبية فى تغير الأوضاع . كما كف الله
للسلمين فى مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان .

ويبدو أن رائحة فاحت عن قتل الأمس ، وأن شبهات تطايرت حول موسى . لما عرف
عن كراهيته من قبل لظنيان فرعون وملئه ، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلى
سرا بين قومه ، ثم تشفى بعد ذلك خارج بنى إسرائيل .

نرجح هذا لأن قتل موسى لأحد رجال فرعون فى معركة بينه وبين إسرائيل فى مثل هذه
الظروف يعد حدثا مرجحا لنفوس بنى إسرائيل ، يشقى بعض غيظهم ، فيشيع عادة وتناقله
الأسنة فى همس وفرح وتشفى ، حتى يشفو ويتطاير هنا وهناك ، وبخاصة إذا عرف عن موسى
من قبل شرته من البغى ، واتصاره للمظلومين .

فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الثانى واجهه هذا بالتهمة ، لأنها عندئذ نجسحت له حقيقة ، وهو يراه بهم أن يبطش به ، وقال له تلك الجملة : « أتريد أن تقتلى كما قتلت نسا بالأمس ؟ » .

أما بقية عبارته : « إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » . . فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له فى الحياة مسلكا يعرف به أنه رجل صالح مصلح ، لا يحب البغى والتجبر . فهذا القبطى يذكره بهذا ويورث به ؟ ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه . يريد أن يكون جبارا لا مصلحا ، يقتل الناس بدلا من إصلاح ذات البين ، وتهدة نائرة الشر . وطريقة خطابه له وموضوع خطابه ، كلاما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوبا من رجال فرعون . وإلا ما جرؤ المصرى على خطابه بهذه اللمجة ، ولما كان هذا موضوع خطابه .

ولقد قال بعض المفسرين : إن هذا القول كان من الإسرائيلى لا من القبطى ، لأنه لما قال له موسى : « إنك لنوى ميين » ، ثم تقدم نحوه وهو غاضب لبطش بالذى هو عدو لها ، حسب الإسرائيلى أنه غاضب عليه هو ، وأنه يتقدم لبطش به هو ، فقال مقالته ، وأذاع بالسر الذى يعرفه وحده . . وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك السر كان مجهولا عند المصريين .

ولكن الأقرب أن يكون القبطى هو الذى قال ما قال . وقد عللنا شيوع ذلك السر . وأنها قد تكون فraise أو حدسا من المصرى بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع^(١) .

والظاهر أن موسى لم يقدم بعد إذ ذكره الرجل فطعة الأمس ، وأن الرجل أفلت لينهى إلى اللأمن قوم فرعون أن موسى هو صاحبها . فهنا فجوة فى السياق بعد للشهد السابق . ثم إذا مشهد جديد . رجل يعمىء إلى موسى من أقصى المدينة ، يحذرهم التار للالأمن من قوم فرعون به ، وينصح بالمهرب من المدينة إبقاء على حياته :

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . قال : يا موسى إن الملاء يأتعون بك ليقتلوك . فاخرج إنى لك من الناصحين » . .

إنها يد القدرة تسفر فى اللحظة المطلوبة ، لنتم مشيتها !

(١) جريت على الرأى الأول فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن . ولكنى لى هذا الرأى الأخير أميل الآن .

لقد عرف اللائ من قوم فرعون ، وهم رجال حاشيته وحكومته والتقربون إليه أنها فلة موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر . فهي فلة طابها الثورة والتمرد ، والانتصار لبني إسرائيل . وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التأمر . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحققت أن يشتغل بها فرعون وللا والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحدا من اللائ . الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكلم إسماعه ، والذي جاء ذكره في سورة (غافر)^(١) انتدبت ليسمى إلى موسى « من أقعى المدينة » في جد واهتمام ومسارة ، ليلفه قبل أن يلفه رجال الملك : « إن الملايأتعرون بك ليقنوك ، فأخرج إني لك من الناصحين .. »

« فخرج منها خائفا يترقب . قال : رب نجني من القوم الظالمين » . .

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية . التوفز والتلفت . ونلع معها ، التوجه المباشر بالطلب إلى الله ، والتطلع إلى حمايته ورعايته ، والالتجاء إلى حماه في المخافة ، وترقب الأمن عنده والنجاة : « رب نجني من القوم الظالمين » . .

ثم يتبعه السياق خارجا من المدينة ، خائفا يترقب ، وحيدا فريدا ، غير مزود إلا بالاعتقاد على مولاه ؛ والتوجه إليه طالبا عونته وهداه :

« ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » . .

ونلع شخصية موسى عليه السلام فريدا وحيدا مطاردا في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالى الحجاز . مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لازاد ولا استمداد ، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب ، وخرج منزجيا بنذارة الرجل الناصح ، لم يثلب ، ولم يزود ولم يتخذ دليلا . ونلع إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه ، مستسلة له ، متطلعة إلى هدها :

« عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » . .

ومرة أخرى نجد موسى - عليه السلام - في قلب المخافة ، بعد فترة من الأمن . بل من الرفاهية والطراوة والنعى . ونجده وحيدا مجردا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يطارده فرعون وجنده ، ويحشون عنه في كل مكان ، لينالوا منه اليوم ما لم ينلوه منه طفلا . ولكن اليد التي رعته وحشته هناك ترعه وتحميه هنا ، ولا تسله لأعدائه أبدا . فيها هو ذا يقطع الطريق الطويل ، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء :

(١) « وقال رجل من آل فرعون يكلم إسماعه : أعتلون رجلا أن يقول ربي الله » الآية (٢٨) .

« ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إني لما أنزلت إلی من خير فقير . » .

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء مدين . وصل إليه وهو مجهود مكدود . وإذا هو يطلع على مشهد لا يستريح إليه النفس ذات اللروة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى عليه السلام . وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان عنهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوى اللروة والفطرة السليمة ، أن تسقى المرأتان وتصدرا بأغنماهما أولا ، وأن يفسح لهما الرجال وبينهما .

ولم يقعد موسى الحارب للمطارد ، للسافر للكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا للنظر الشكر الخائف للمعروف . بل تقدم للرائتين يسألها عن أمرها التريب :

« قال : ما خطبكما ؟ » .

« قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . » .

فأطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لتنهما عن الورد . إنه الضنف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعى ومجالة الرجال ؛ وثارت نحوه موسى — عليه السلام — وفطرته السليمة . فتقدم لإقرار الأمر في نصابه . تقدم ليستقى للرائتين أولا ، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة . وهو غريب في أرض لا يعرفها ، ولا سنده فيها ولا ظهير . وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد . وهو مطارد ، من خلفه أعداء لا يرحمون . ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعي اللروة والتجدة والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس :

« فسقى لهما . » .

لما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله . كما يشي بقوته التي تهرب حتى وهو في إعاء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التي أوقست في قلوب الرعاة رهبتها أكثر من قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب .

« ثم تولى إلى الظل » . .

كما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيط وحر ، وأن السفرة كانت في ذلك القيط والحر .

« فقال : رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » . .

إنه يأوى إلى الظل للمادى البليل بحسبه ، ويأوى إلى الظل المريض للمدود . ظل الله الكريم اللتان . بروحه وقلبه : « رب . إني لما أنزلت إلى من خير فقير » . رب إني في الهجرة . رب إني فقير . رب إني وحيد . رب إني ضيف . رب إني إلى فضلك ومنك وكرمك فقير محووج . ونسجم من خلال التعبير رفرقة هذا القلب والتجاء إلى الحى الآمن ، والركن الركين ، والظل الظليل . نسجم للتاجاة القرية والممس للوحى ، والانطاف الرقيق ، والاتصال العميق : « رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » . .

وما نكاد نستغرق مع موسى - عليه السلام - في مشهد الناجاة حتى يسجل السياق بمشهد الفرج ، معقبا في التعبير بالفاء ، كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الضارع التريب . « فجاته إحداهما تمشى على استحياء . قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . .

يافرج الله ! وإياقربه ويأنداه ! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير . دعوة للإبواء والكرامة والجزاء على الإحسان . دعوة تحملها : « إحداهما » وقد جاتته « تمشى على استحياء » مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال . « على استحياء » . في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاتته لنهى إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله ، يحكيه القرآن بقوله : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . فع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ؛ لا التلجلج والتشتر والريكة . وذلك كذلك من إعساء القطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القروية تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب . الاضطراب الذى يطمع ويضري ويهيج ؛ إنما تحدث في وضوح بالقدر المطلوب ، ولا تزيد .

وينبى السياق هذا للشهد فلا يزيد عليه ، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة ، والاستجابة من موسى . ثم إذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الكبير . الذى لم ينص على اسمه .

وقيل : إنه ابن أخى شعيب النبی للعروف . وإن اسمه يثرون ^(١) .

« فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال : لا تخف . نجوت من القوم الظالمين » ..

فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ؛ كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد . ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور : « لا تخف » فجعلها أول لفظ يقب به على قصصه ليلقى في قلبه الطمأنينة ، ويشمره بالأمان . ثم بين وعمل : « نجوت من القوم الظالمين » فلا سلطان لهم على مدين ، ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار .

ثم نسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة :

« قالت إحداها : يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

إنها وأختها تمانيان من رعى التمن ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذي لابد منه للمرأة التي تزاول أعمال الرجال . وهي تتأذى وأختها من هذا كله ؛ وتريد أن تكون امرأة تأوى إلى بيت ؛ امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال القراء في المرعى والمسقى . والمرأة العفيفة الروح ، النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبدل الناشئ من هذه المزاحمة .

وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوى أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقي لهما . وهو غريب . والغريب ضعيف مهما افتد . ورأت من أمانته ما يحمله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته . فهي تشير على أبيها باستتجاره ليكفيها وأختها مؤنة الملل والاحتكاك والتبدل . وهو قوى على العمل ، أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه . وهي لا تتعلم في هذه الإشارة ولا تضطرب ،

(١) سبق أن قلت مرة في الظلال : إن هذا الرجل هو شعيب . قلت مرة : إنه قد يكون النبی شعيباً أو لا يكون .. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين . والذي يعمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير . وشعيب شهد مهلك قومه ، للكذابين له ، ولم يبق معه إلا المؤمنون به . فلو كان هو شعيب - التي - بين بقية قومه المؤمنين ، ماسقوا قبل بئى نبيهم الشيخ الكبير . فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ، ولا معاملة لهم لنبيهم وبناته من أول جيل !
يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تلميذ لموسى صهره . ولو كان شعيباً النبي لسمنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات .

ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهي بريئة النفس ، نظيفة الحس ، ومن ثم لا تخشى شيئا ، ولا تتم ولا تجمع وهي تعرض اقتراحها على أبيها .

ولا حاجة لكل ما رواه القسرون من دلائل قوة موسى . كرفع الحجر الذى ينفط البئر وكان لا يرفسه - فباقلوا - إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل . فالبئر لم يكن منقطى ، إنما كان الرعاء يسقون فتحام وسقى للرأتين ، أو سقى لهما مع الرعاء .

ولا حاجة كذلك لما روي عن دلائل أمانته من قوله للفتاة : امشى خلفى ودلبنى على الطريق خوف أن يراها . أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كسبها .. فهذا كله تكلف لا داعى له ، ودفع لرية لا وجود لها . وموسى - عليه السلام - عفيف النظر نظيف الحس ، وهى كذلك ، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة . فالعفة تنضج فى التصرف المادى البسيط بلا تكلف ولا اصطناع واستجاب الشيخ لا قتراح ابنته . ولله أحسن من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلا فطريا سليما ، صالحا لبناء أسرة . والقوة والأمانة حين تجتمعان فى رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التى لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه فى مقابل أن يخدمه ويرعى ما شئته ثمانى سنين . فإن زادها إلى عشر فهو فضل منه لا يلزم به .

« قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ، على أن تأجرني ثمانى حجج . فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك . ستجدنى إن شاء الله من الصالحين »

وهكذا فى بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد - ولله كان يشعر كما أسلفنا - أنها معدة ، وهى التى وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها فى غير تخرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحا لا يخل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس فى هذا ما يخل ، ولا ما يدعو إلى التخرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد فى البيئة التى تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولى الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه وكفائته لابنته أو أخته أو قريبته ، وتختم أن يكون الزوج أو ولىه أو وكيله هو الذى يتقدم ، أو لا يلبق أن يحى العرض من الجانب الذى فيه المرأة ، ومن مفارقات مثل هذه البيئة للنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون

ويغفلون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولانية نكاح . فأما حين تعرض الخطبة أويذكر النكاح ، فيبسط الرجل للسطح ، وتقوم الحوائل للتكلفة وتمتنع للصارحة والبساطة والإبانة !

ولقد كان الآباء يمرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل كانت النساء تعرضن أنفسهن على النبي - صلى الله عليه وسلم - أو من يرغب في تزويجهن منهم . كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدش معه كرامة ولا حياة .. عرض عمر - رضي الله عنه - ابنته حفصة على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر ، فلما أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا طيب خاطره ، عسى أن يجعل الله لها نصيبا فيمن هو خير منها . ثم تزوجها - صلى الله عليه وسلم - وعرضت امرأة نفسها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها يزوجه ممن يشاء . فزوجها رجلا لا يملك إلا سورتين من القرآن ، عليها إياهما فكان هذا صداقها .

وبمثل هذه البساطة والوضاعة سار المجتمع الإسلامي بيني بيوتهم ويقم كيانه . في غير ما تملثم ولا ججمة ولا تصنع ولا التواء .

وهكذا صنع الشيخ الكبير - صاحب موسى - فعرض على موسى ذلك العرض وأعدا إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل ؛ راجيا بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه . وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله . فهو لا يترك نفسه ، ولا يجزم بأنه من الصالحين . ولكن يرجو أن يكون كذلك ، ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله .

وقبل موسى العرض وأمضى القدر ؛ في وضوح كذلك ودقة ، وأشهد الله :

« قال : ذلك بيني وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ » . والله على ما نقول وكيل » .

إن مواضع القدر وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ، ولا اللشمة ، ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض ، ويرم القدر ، على ما عرض الشيخ من الشروط . ثم يقرر هذا ويوضحه : « أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ » . . . سواء قضيت ثمان سنوات أو أعمت عشرة ، فلا عدوان في تسكليف العمل ، ولا عدوان في تحميم الحشر ؛ فالزيادة على الثمانية

اختيار .. « والله على ما نقول وكيل » . فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيلاً .

بين موسى - عليه السلام - هذا البيان تمشياً مع استقامة فطرته ، ووضوح شخصيته ، وتوفية بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوي أن يوفى بأفضل الأجلين كما فعل . فقد روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبر أنه : « قضى أكثرهما وأطيبها » (١)

وهكذا اطمأن بموسى - عليه السلام - للقام في بيت حميه ؟ وقد أمن من فرعون وكيده . وحكمة مقدره في علم الله كان هذا الذي كان . . فلندع الآن هذه الحلقة نحضي في طريقها حتى تنتفى . فقد سكت السياق فيها عند هذا الحد وأسدل الستار ..



وتحضي السنوات الشر التي تعاقد عليها موسى - عليه السلام - لا يذكر عنها شيء في سياق السورة ، ثم تعرض الحلقة الثالثة بعد ما قضى موسى الأجل وسار بأهله ، عائداً من مدين إلى مصر ، يسلك إليها الطريق الذي سلكه منذ عشر سنوات وحيداً طريداً ، ولكن جو العودة غير جو الرحلة الأولى . . إنه عائداً ليتلقى في الطريق ما لم يخطر له على بال . لينادي به ويكلمه ، ويكلفه التوضؤ بالمهمة التي من أجلها وقاه ورعاه ، وعلمه ورباه . مهمة الرسالة إلى فرعون ومثله ، ليطلق له بنو إسرائيل يمدون ربه لا يشركون به أحداً ؛ ويرثون الأرض التي وعدم لم يكن لهم فيها ؟ ثم ليكون لفرعون وهامان وجنودهما عدواً وحزناً ، ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقاً :

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله : امسكوا ، إن آنست نارا ، لمى آتيكم منها خبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودي من شاطئ الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة : أن ياموسى إلى أنا الله رب العالمين ؛ وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يقب ، ياموسى أقبل ولا تخف ، إنك من الأمنين . اسلك يدك في جيبك تخرج يضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك

(١) أخرجه البخارى

من الرهب فدانك برهانان من ربك إلى فرعون وملكه ، إنهم كانوا قوما فاسقين . قال : رب
إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معي
رددا بصدقي إني أخاف أن يكذبون . قال : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكنا سلطانا فلا
يسلون إليكما . بآياتنا أتينا ومن اتبعكما الغالبون ..

وقبل أن نستعرض هذين للشهدين في هذه الحلقة نقف قليلا أمام مدير الله لموسى - عليه
السلام - في هذه السنوات الشر ، وفي هذه الرحلة ذهابا وحيثه ، في هذا الطريق ..

لقد قلت يد القدرة خطى موسى - عليه السلام - خطوة خطوة . منذ أن كان رضيعا في
المهد حتى هذه الحلقة . أتت به في اليم ليلقطه آل فرعون . وألقت عليه المحبة في قلب امرأته
لينشأ في كنف عدوه . ودخلت به للمدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً .
وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها . وصاحبتة في
الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استمداد . وجمته
بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات الشر . ثم ليعود بعدها فيتلقي التكليف . .

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه ، ومن التلقى والتجريب ، قبل النداء وقبل
التكليف . . تجربة الرعاية والحب والتدليل . وتجربة الاندفاع تحت ضغط التمييز الجبيل ،
وتجربة الندم والتحرج والاستغفار . وتجربة الخوف والمطاردة والفرار . وتجربة الحرية والوحدة
والجوع . وتجربة الخدمة ورعى النعم بعد حياة القصور . وما يتخلل هذه التجارب الضخمة
من شق التجارب الصغيرة ، والمشاعر للتبانية ، والحوالج والحواطر ، والإدراك والمعرفة . .
إلى جانب ما أتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

إن الرسالة تكليف منكم شاق تمتد الجوانب والتبعات ؛ يحتاج صاحبه إلى زاد منكم من
التجارب والإدراك والمعرفة والتفوق في واقع الحياة العملي ، إلى جانب هبة الله الدلنية ،
ووجيه وتوجيهه للقلب والضمير .

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر - عدا رسالة محمد - صلى الله
عليه وسلم - فهو مرسل إلى فرعون الطاغية للتجبر ، أعنى ملك الأرض في زمانه ، وأقدمهم
عرشا ، وأثبتهم ملكا ، وأعرقهم حضارة ، وأشدهم تميدا للخلق واستعلاء الأرض .
وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الدل حتى استمروا مذاقه ، فهدوا

عليه واستكانوا دهرًا طويلاً . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأمن وتتمغن ؛ وينهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمزاز من العفن والتفن والرجس والانس . فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير .

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة ؛ انحرفوا عنها ، وفسدت صورتها في قلوبهم . فلا هي قلوب حامة تقبل العقيدة الجديدة براءة وسلامة ؛ ولا هي باقية على عقيدتها القديمة . ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة . والاتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد للمهمة مشقة وعسراً .

وهو في اختصار مرسل لإعادة بناء أمة ، بل لإنشائها من الأساس . فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلاً ، له حياة خاصة ، تحكمها رسالة . وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير .

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة ، فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة ، وما يترتب هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية . وما يتورط من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقل .

فأما تجربة السنوات العشر فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى - عليه السلام - وحياة الجهد الشاق في الدعوة وتكاليفها العسيرة .

إن حياة القصور جواً خاصاً ، وتقاليد خاصة ، وظلالاً خاصة تلقيها على النفس وتطبعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية . والرسالة معاناة للجواهر من الناس فيهم النقي والفقير ، والواجد والمحرور ، وفيهم التنظيف والوسخ ، والمهذب والחסن ؛ وفيهم الطبيب والحبيب والخير والشرير . وفيهم القوى والضعيف ، والصابر والجزوع .. وفيهم وفيهم .. وللفقراء عادات خاصة في أكلهم وشرابهم ولبسهم ومشيمهم ، وطريقة فهمهم للأمور ، وطريقة تصورهم للحياة ، وطريقة حديثهم وحركتهم ، وطريقة تمييزهم عن مشاعرهم . وهذه العادات تثقل على نفوس النعمين ومشاعر الذين تربوا في القصور ؟ ولا يكادون يطبقون رؤيتها فضلاً على معاناتها وعلاجها ، مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مستعدة للصالح ، لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم في قلوب أهل القصور

والرسالة تكاليفها من الشقة والتجرد والشظف أحيانا . . . وقلوب أهل القصور — مهما تكن مستعدة للتضحية بما اعتادته من الحفص والدعة والتمتع — لا تصبر طويلا على الحشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها في واقع الحياة .

فشاءت القدرة التي تنقل خطى موسى — عليه السلام — أن تخفض بما اعتادته نفسه من تلك الحياة ؛ وأن تزج به في مجتمع الرعاة ، وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون راعى غنم يجد القوت والمأوى ، بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع . وأن ينزع من حسه روح الاشمئزاز من الفقر والفقراء ، وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشوتهم وسذاجتهم ؛ وروح الاستملاء على جهلهم وفقيرهم وراثثة هيتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم . وأن تلقى به في خضم الحياة كبيرا بعد ما ألفت به في خضم الأمواج صغيرا ، ليبرن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها . . .

فلما أن استكملت نفس موسى — عليه السلام — تجاربها ، وأكملت مراتبها ودرجاتها ، بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة ، قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه ، ومقر أهله وقومه ، وبحال رسالته وعمله ، سالكة به الطريق التي سلكها أول مرة وحيدا طريدا خائفا يثقت . فإ هذه الحياة والذهوب في ذات الطريق ؛ إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق . الطريق الذي سيقود فيه موسى خطى قومه بأمر ربه ، كي يستكمل صفات الرائد وخبرته ، حتى لا يعتمد على غيره ولو في ريادة الطريق . قومه كانوا في حاجة إلى رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة ، بعد أن أفسدم الدل والقسوة والتسخير ؛ حتى قدوا القدرة على التدبير والتفكير .

وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله ، وكيف أعدته القدرة لتلقى التكليف . فلتتبع خطى موسى تقلها يد القدرة الكبرى ، في طريقه إلى هذا التكليف .



« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آتس من جانب الطور نارا . قال لأهله : امكثوا إنى آتست نارا ، لئلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » ..
ترى أى خاطر راود موسى ، فعاد به إلى مصر ، بعد انقضاء الأجل ، وقد خرج منها

خائفا يترقب ؟ وأنساء الخطر الذى ينتظره بها ، وقد تئل فيها نسا ؟ وهناك فرعون الذى كان يتآمر مع اللأ من قومه ليقتاوه ؟
إنها اليد التى تنقل خطاه كلها ، لملها قاذبه هذه المرة بالليل القفرى إلى الأهل والعشيرة ، وإلى الوطن والبيئة ، وأنسته الخطر الذى خرج هاربا منه وحيدا طريدا ، ليؤدى للهمة التى خلق لها ورعى منذ اللحظة الأولى .

على أية حال ها هوذا عائد فى طريقه ، ومعه أهله ، والوقت ليل ، والجو ظلة ؟ وقد ضل الطريق ، والليله شاتية ، كما يبدو من أنسه بالنار التى شاهدها ، ليأتى منها بغير أو جذوة ..
هذا هو للشهد الأول فى هذه الحلقة .

فأما للشهد الثانى فهو المفاجأة الكبرى :

« فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة » ..

فها هو ذا يقصد إلى النار التى آتسها ، وها هوذا فى شاطئ الوادى إلى جوار جبل الطور ، الوادى إلى يمينه ، « فى البقعة المباركة » .. المباركة ، من هذه اللحظة .. ثم هذا هو الكون كله يتجاوب جنباته بالنداء العلوى الآتى لموسى « من الشجرة » ولملها كانت الوحيدة فى هذا المكان :

« أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » :

وتلقى موسى النداء المباشر . تلقاه وحيدا فى ذلك الوادى العميق ، فى ذلك الليل الساكن . تلقاه يتجاوب به الكون من حوله ، وتمتلئ به السماوات والأرضون . تلقاه لا ندرى كيف وبأية جراحة وعن أى طريق . تلقاه ملء الكون من حوله ، وملء كيانه كله . تلقاه وأطاق تلقيه لأنه صنع على عين الله حتى تها لهذه اللحظة الكبرى .

وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوى وبوركت البقعة التى تجلى عليها ذو الجلال ؟ وتمين الوادى الذى كرم بهذا التجلى ، ووقف موسى فى أكرم موقف يلقاه إنسان . واستطرد النداء العلوى يلقى إلى عبده التكليف :

« وأن ألقى عصاك » ..

والذى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه ؟ ولكن ماذا ؟ إنها لم تعد عصاه التى صاحبها طويلا ، والذى يعرفها معرفة اليقين . إنها حية تدب فى سرعة ، وتتحرك فى خفة ، وتتولى كصغار الحيات وهى حية كبرى :

« قلما رأها تهنأ كآتها جان ولى مدبرا ولم يقب » ..

إنها للمفاجأة التي لم يستعد لها ؛ مع الطبيعة الانفعالية ، التي تأخذها الوهلة الأولى .. « ولى مدبرا ولم يعقب » ولم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها ؛ وليتأمل هذه العجيبة الضخمة . وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تتجلى في موعدها ! ثم يستمع إلى ربه الأعلى :

« ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين » .

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعا على هذه النفس ، ويتاورانها في مراحل حياتها جميعا . إنه جو هذه الحياة من بدتها إلى نهايتها ؛ وإن هذا الانفعال الدائم لمقصود في تلك النفس ، مقدّر في هذه الحياة ، لأنه الصفحة للقابلة لتبدل بنى إسرائيل ، ومرودم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل . وهو تدير القدرة وتقديرها العميق الدقيق .

« أقبل ولا تخف إنك من الأمنين » .

وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه ، ومن ترعاه عين الله ؟

« اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » ..

وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها . فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة . إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهدا أدماء تضرب إلى السمرة . إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل . وأدركت موسى طبيعته . فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارفه المتتابعة . ومرة أخرى تدركه الرعاية الحانية بتوجيه يرده إلى السكينة . ذلك أن يضم يده على قلبه ، فتخفض من دفائه ، وتطامن من خفقاته :

« واضم إليك جناحك من الرهب » ..

وكأنما يده جناح يقبضه على صدره ، كما يطمن الطائر فيطبق جناحه . والرفرفة أشبه بالحققتان ، والقبض أشبه بالاطمئنان . والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن . والآن وقد تلقى موسى ما تلقى ، وقد شاهد كذلك ما شاهد ، وقد رأى الآيتين الحارقتين ، وقد ارتجف لهما ثم اطمأن . . الآن يعرف ما وراء الآيات ، والآن يتلقى التكليف الذي كان يعد من طفولته الباكرة ليلتقاه . .

« فذاذك برهانان من ربك إلى فرعون ومثله . إنهم كانوا قوما فاسقين » . .
وإذن فعلى الرسالة إلى فرعون ومثله . وإذن فهو الوعد الذى تلقته أم موسى
وهو طفل رضيع : « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » . . الوعد اليقين الذى انقضت
عليه السنون . وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين .

هنا يتذكر موسى أنه قتل منهم نفساً ، وأنه خرج من بينهم طريداً ، وأنهم تأمروا على
قتله فهرب منهم بعيداً . وهو فى حضرة ربه . وربه يكرمه ببقائه ، ويكرمه بنجائه ، ويكرمه
بآياته ، ويكرمه برعايته ، فماله لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتقطع رسالته :
« قال : رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » ..

يقولها لا يستتر ، ولا ليتقاس ، ولا ليتكس ، ولكن ليحتاط للدعوة ، وبطمأن إلى
مضيقها فى طريقها ، لو لقي ما يخاف . وهو الحرس اللاتى بموسى القوى الأمين :
« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردأً يصدقنى ، إنى أخاف أن
يكذبون » .

إن هارون أفصح لسانا فهو أقدر على النافعة عن الدعوة . وهو رده له معين ، يقوى
دعواه ، ويخلفه إن قتله .

وهنا يتلقى موسى الاستجابة والتطمين :

« قال : سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكنا سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أتينا ومن
اتبكمنا القابلون » ..

لقد استجاب ربه رجاءه ، وشده عضده بأخيه . وزاده على مارجاه البشارة والتطمين :
« ونجعل لكنا سلطانا » .. فهالكن ينحبا مجردين إلى فرعون الجبار . إنما ينهبان إليه
مزودين بسلطان لا يقف له فى الأرض سلطان ، ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار : « فلا
يصلون إليكما » .. وحولكما من سلطان الله سيلج ، ولكما منه حصن وملاذ .

ولا تنف البشارة عند هذا الحد . ولكنها القلبية للحق . النلبية لآيات الله التى يجهان بها
الطعنة . فإذا هى وحدها السلاح والقوة ، وأداة النصر والظبية : « بآياتنا أتينا ومن
اتبكمنا القابلون » .

القادرة تجلى سافرة على مسرح الحوادث ؟ وتؤدى دورها مكتشفا بلا ستار من قوى الأرض ، لتكون القلبة بغير الأسباب التى تعارف عليها الناس ، فى دنيا الناس ، وليقوم فى النفوس ميزان جديد للقوى والقيم . إيمان وثقة بالله ، وما بعد ذلك فعلى الله .



وينتهى هذا المشهد الرائع الجليل ؛ ويطوى الزمان ويطوى المكان ، فإذا موسى وهارون فى مواجهة فرعون ، بآيات الله البينات ؟ وإذا الحوار بين المهدي والضلال ؟ وإذا النهاية الحاسمة فى هذه الدنيا بالترق ، وفى الحياة الأخرى باللمنة . فى سرعة واختصار :

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . وقال موسى : ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون : يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقدنى ياهايمان على الطين فاجعل لى صرحا لعل أطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينفرون ؟ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لئلا ، ويوم القيامة هم من المقبحين » ..

إن السياق هنا يجعل بالضربة القاضية ؛ ويختصر حلقة السحرة التى تذكر فى سور أخرى بتفصيل أو إجمال . يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك . ثم لا يقف عند الأخذ فى الدنيا ، بل يتابع الرحلة إلى الآخرة .. وهذا الإسراع فى هذه الحلقة مقصود ، متناسق مع أنجاه القصة فى السورة : وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر ، فما إن يواجه موسى فرعون حتى يجعل الله بالعاقبة ، وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة ، بلا تفصيل فى المواجهة أو تطويل .

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » ...

وكأنما هى ذات القول التى يقولها المشركون لحمد - صلى الله عليه وسلم - فى مكة يومذاك .. « ماهذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » .. فهى الماراة فى الحق الواضح الذى لا يمكن دفعه . للماراة المكرورة حيثما واجه الحق الباطل فأعياى الباطل الجواب .

إنهم يدعون أنه سحر ، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم ، لم يسمعو به في آياتهم الأولى !

وهم لا يناقشون بحجة ، ولا يدلون ببرهان ، إنما يلقون بهذا القول الغامض الذى لا يحق حقاً ولا يطل باطلا ولا بدفع دعوى . فأما موسى - عليه السلام - فيحيل الأمر بينه وبينهم إلى الله . فما أدلوا بحجة ليناقشها ، ولا طلبوا دليلاً فيعطيه ، إنما هم يمارون كما يمارى أصحاب الباطل في كل مكان وفي كل زمان ، فالاختصار أولى والإعراض أكرم ، وترك الأمر بينه وبينهم إلى الله :

« وقال موسى : ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون » .

وهو رد مؤبد مهذب ، يلج فيه ولا يصرح . وفي الوقت ذاته ناصح واضح ، ملء بالثقة والعلمانية إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل . فربه أعلم بصدقه وهداه ، وعاقبة الدار مكتولة لمن جاء بالهدى ، والظالمون في النهاية لا يفلحون . سنة الله التى لا تتبدل . وإن بدت ظواهر الأمور أحياناً في غير هذا الاتجاه . سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبي قومه .

وكان رد فرعون على هذا الأدب وهذه الثقة ادعاء وتطاولا ، ولجبا ومداورة ، ونهكاً وسخرية :

« وقال فرعون : يا أيها اللأ ما علمت لكم من إله غيرى . فأوقد لى ياهامان على الطين فأجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين » . .

يا أيها اللأ ما علمت لكم من إله غيرى . كلمة فاجرة كافرة ، يتلقاها اللأ بالإقرار والتسليم . ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التى كانت سائدة في مصر من نسب للوكة للآلهة . ثم على القهر ، الذى لا يدع لرأس أن يفكر ، ولا لسان أن يعبر . وهم يرونه بشراً مثلهم محياً ويموت ، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب ! ثم يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة ، والبحث عن إله موسى ، وهو يلهو ويسخر : « فأوقد لى ياهامان على الطين فأجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى » . . في السجاء كما يقول ! ولهجة

التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك في صدق موسى ، ولكنه مع هذا الشك يبحث ويتنبأ ليصل إلى الحقيقة : « وإني لأظنه من الكاذبين » !

وفي هذا اللوح كانت حلقة للباراة مع السحرة . وهي محذوفة هنا للتجويل بالنهاية :
« واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » . .
فلما توهما عدم الرجعة إلى الله استكبروا في الأرض بغير الحق ، وكذبوا بالآيات والنذر (التي جاء ذكرها في مطلع هذه الحلقة ، ووردت بالتفصيل في سور أخرى) .
« فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم » .

هكذا في اختصار حاسم . أخذ شديد ونبذ في اليم . نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر . اليم التي ألقى في مثلها موسى الطفل الرضيع ، فكان مأمناً وملجأ . وهو ذاته الذي ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فلذا هو مخافة ومهلكة . فالأمن إنما يكون في جناب الله ، والمخافة إنما تكون في البعد عن ذلك الجنب .
« فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . .

فهي عاقبة مشهودة معروضة للعالمين . وفيها عبرة للمعتبرين ، ونذير للكافرين . وفيها يد القدرة تصف بالطاعة وللتجبرين في مثل ملح البصر ، وفي أقل من نصف سطر !
وفي لحة أخرى يجتاز الحياة الدنيا ؛ ويقف بزعزعة وجنوده في مشهد عجيب . . يدعوون إلى النار ، ويقودون إليها الأتباع والأنصار :
« وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » . .
فيا بشاها دعوة ! ويا بشاها إمامة !
« ويوم القيامة لا ينصرون » . .

فهي الهزيمة في الدنيا ، وهي الهزيمة في الآخرة ، جزاء البني والامتطالة . وليست الهزيمة وحدها ، إنما هي اللعة في هذه الأرض ، والتفويض في يوم القيامة .
وأبتعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من اللعوبين .
ولفظه « اللعوبين » ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التقرز

والاشمئزاز . ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض ، وقتة الناس بالمظهر والجاه ،
وانتطاول على الله وعطى عباد الله .

ويسير السياق هنا مرحلة الخروج بيني إسرائيل من مصر ، وما حدث خلالها من أحداث ،
ليجبل بمرض نصيب موسى بعد عرض نصيب فرعون :
« ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بسانن للناس ، وهدى
ورحمة ، لهمم يذكرون » . .

هذا نصيب موسى . وهو نصيب عظيم . وهذه عاقبة موسى . وهي عاقبة كريمة .. كتاب
من الله يصير الناس كأنه بساننهم التي بها يهتدون ، « وهدى ورحمة » . . « لهمم
يذكرون » . . يذكرون كيف تدخل يد القدرة بين العطاء والمستضعفين ، فتختم للعطاء
بالهلاك والتدمير ، وتختم للظالمين بالخير والتفكير .

وهكذا تنتهي قصة موسى وفرعون في هذه السورة . شاهدة بأن الأمن لا يكون إلا في
جانب الله . وأن المخافة لا تكون إلا في البعد عن الله . ذلك إلى تدخل يد القدرة سافرة
متحدية للظلمة والعطاء ، حين تصبح القوة فتنة يمجز عن صدها الهداة . وهي المعاني التي
كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المستضعفة في مكة في حاجة إلى الاطمئنان إليها . وكان المشركون
المستكبرون في حاجة إلى تدبرها . وهي المعاني للمتجدة الجامعة حيثما كانت دعوة إلى الهدى ،
وحيثما كان طغيان يقف في وجه الهدى .

وهكذا يجمي القصص في القرآن مادة تربية للنفوس ، وتقرير لحقائق وسنن في الوجود
« لهمم يذكرون » . .

« وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الثَّرْيِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ، وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ *
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ ، وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِمَكْنِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَأْتَانَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ ، فَيَقُولُوا : رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ، فَنُنَبِّئَ آيَاتِكَ ، وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : لَوْ لَا آوَيْنَا بِمِثْلِ مَا آوَى مُوسَى . أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا آوَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ قَالُوا : سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ، وَقَالُوا : إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ كَافِرُونَ * قُلْ : فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنِيبُهُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ؟ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

« الَّذِينَ آمَنُواهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُنْفَخُ عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَبِذَرَاوَنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ، وَمَا زَرَفْنَا لَهُمْ يَنْفَقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا الْقَوْمَ أَغْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِنَا بِالْجَاهِلِينَ .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

« وَقَالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَكَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا . أَوَلَمْ نُسْكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ؟ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ بِطَرَفِ مِيشَتَهَا ، فَنُفِكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ نُسْكُنْ مِنْ بَنِيهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا

أَوَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَسْتَأْجِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ *
أَفَسَوْفَ نَذْهَبُ وَهَذَا حَسَنًا مَقُورًا لَافِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمًا
الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ؟

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيُّكُمْ كَانِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ * قَالَ الَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاكُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ،
مَا كَانُوا إِلَّا بَايِعُوا بِعَدْوَنَ * وَقِيلَ : اذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ،
وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟ * فَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْآبَاءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا نَفْسُ أَنْ يَكُونَ مِنَ
الْمُفْلِحِينَ .

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ بِمَا تَكُونُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
لَهُ الْحُكْمُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْقِلَافَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ
اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِبَيِّنَاتٍ ؟ * قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ
سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِبَيِّنَاتٍ تَكُونُونَ فِيهِ ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ *
وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَسْكُمْ
تَشْكُرُونَ .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيُّكُمْ كَانِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ * وَنَزَعْنَا مِنْ
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ . فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ . »

مضت قصة موسى - عليه السلام - بدلالاتها التي وضحت في الدرس الماضي . فأما في هذا الدرس فتبدأ التفتيات عليها ؟ ثم يعنى السياق في طريقه على عوور السورة الأصيل ، بين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؟ ويجول مع الشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمناذر . يجول معهم جولات شتى في مشاهد الكون ، وفي مشاهد الحشر ، وفيها هم فيه من الأمر ؟ بعد أن يعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود . وهو رحمة لهم من العذاب ، لو أنهم كانوا يتذكرون .

والتفتيب الأول على القصة يدور حول دلالتها على صدق دعوى الوحي . فرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصها شاهد اليان ؟ وما كان حاضر أحدائها ، ولكنه الوحي يقصها عليه من لدن عليم خبير ، رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من الشرك ، « فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » .

« وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين . ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثابوا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ؟ ولكننا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ؟ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أنام من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون . ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتى مثلما أوتى موسى ، أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا : سحران : تطاهرا . وقالوا : إنا بكل كافرون . قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أم أتبعه . إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » ..

والغربي هو الجانب الغربي للطور الذي جله الله ميقاتا مع موسى - عليه السلام - بعد أجل حدد .. ثلاثين ليلة ، أعما بشر . فكانت أربعين ليلة (على ما ذكر في سورة الأعراف)

وفي هذا اللقاءات قضى الأمر لموسى في الألواح ، لنكون شريته في بني إسرائيل . وما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شاهدا لهذا اللقاءات ، حتى يعلم نبأ الفصل ، كما ورد في القرآن الكريم . وإن بينه وبين هذا الحادث لقرونا من الناس - أي أجيالا متطاولة : « ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر » . فذلك دلالة على أن الذي نبأ به هو العليم الخبير ، الذي يوحى إليه بالقرآن الكريم .

ولقد تحدث القرآن كذلك بآباء مدين ، ومقام موسى - عليه السلام - بها وتلاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما كان مقبلا في أهل مدين ، يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة يمثل ذلك التفصيل الذي جاءت فيه : « ولكننا كنا مرسلين » بهذا القرآن وما فيه من أنباء الساجدين .

كذلك صور القرآن موقف المنادة وللناجاة من جانب الطور بدقة وعمق : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » وما سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - النداء ، وما سجل في وقتها تفصيلاته . ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء ، أن قص عليه تلك الأنباء الهائلة على صدقه - صلى الله عليه وسلم - فإيا يدعوهم إليه ، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله - فقد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم ، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل ، منذ أبيهم إسماعيل : « لعلمهم يتذكرون » .

فهى رحمة الله بالقوم . وهى حجة كذلك عليهم ، كي لا يستندوا بأنهم أخذوا على غرة ، وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم بالمداب - وما هم فيه من جاهلية وشرك ومصيبة يستوجب العذاب - فأراد الله أن يقطع حجبتهم ، وأن ينذر إليهم ، وأن يقفهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان :

« ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين ! » ..

كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول . ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات ما يلزم الحجة . ولكنهم حين جاءهم الرسول ، ومعه الحق الذي لا مرية فيه لم يتبعوه :

« فلما جاءهم الحق من عندنا قلوا : لولا أوتى مثلنا أوتى موسى ! أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ! قالوا : سحران تظاهرا ، وقالوا : إنا بكل كافرون » ..

وهكذا لم يدعنوا للحق ، واستمسكوا بالتملات الباطلة : « قالوا : لولا أوتى مثله أوتى موسى » إما من الخوارق للمادية ، وإما من الألواح التي نزلت عليه جملة ، وفيه التوراة كاملة .

ولكنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم ، ولا عخلصين في اعتراضهم : « أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ » ولقد كان في الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب ، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة . ولقد علموا أن صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - مكتوبة في التوراة ، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق ، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ؟ فلم يدعنوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويصدق أحدهما الآخر :

« قالوا : سحران تظاهرا . وقالوا : إنا بكل كافرون » ١

فهو المرء إذن واللجاجة ، لا طلب للحق ولا حصان البراهين ، ولا ضنف الدليل . ومع هذا فهو يسير معهم خطوة أخرى في الإضمحلال والإحراج . يقول لهم : إن لم يكن بيجكم القرآن ، ولم تكن تعجبكم التوراة ؟ فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من التوراة والقرآن فأتوا به أثمه :

« قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أثمه . إن كنتم صادقين » ٢

وهل من نهاية الإنصاف ، وغاية للطاولة بالحجة ، فمن لم يهتج إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى للكابر ، الذي لا يستند إلى دليل :

« فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..

إن الحق في هذا القرآن لبين ؟ وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد يلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصد . وإنها لطريقان لاثالث لهما : إما إخلاص للحق وخلاص من الهوى ، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم . وإما عارضة في الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق . ولا حجة من غموض في العقيدة ، أو ضنف في الحجة ، أو قص في الدليل . كما يدعى أصحاب الهوى للفرضون .

« فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » ..

وهكذا جزما وقطعا . كلمة من الله لا راد لها ولا معقب عليها .. إن الذين لا يستجيون لهذا الدين مقرضون غير معنورين . متجنون لاحجة لهم ولا معنرة ، متبعون للهوى ، ممرضون عن الحق الواضح :

« ومن أسئل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ » ..
وم في هذا ظالمون باغون :

« إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..

إن هذا النس ليقطع الطريق على المتلذذين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن ، ولم يحيطوا علما بهذا الدين . فما هو إلا أن يصل إليهم ، ويعرض عليهم ، حتى تقوم الحجة ، وينقطع الجدل ، وتسقط للمنرة . فهو بذاته واضح واضح ، لا يعيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه ، ولا يكذب به إلا متجنن يظلم نفسه ، ويظلم الحق البين ولا يستحق هدى الله . « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..

ولقد انقطع عذرهم بوصول الحق إليهم ، وعرضه عليهم ، فلم يعد لهم من حجة ولا دليل .
« ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » ..

وحين تنتهى هذه الجولة ، فيبتين منها التواؤم ومراؤم ، يأخذ معهم في جولة أخرى تعرض عليهم صورة من استقامة الطبع وخلوص النية . تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، وطريقة استقبالهم للقرآن للصدق لما بين أيديهم :

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ؟ وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، وبما رزقناهم ينفقون ؟ وإذا سمعوا القرآن أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبشئ الجاهلين » ..

قل سيد ابن جبير - رضى الله عنه - نزلت في سبعين من القيسيين . بشئ النجاشي ، فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم - قرأ عليهم : « يس والقرآن الحكيم » حتى ختمها ، فجلسوا يكون وأسلموا ؟ ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ... إلخ » ...

وروى محمد ابن إسحاق في السيرة : « ثم قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه ، وسألوه ، ورجال من قريش في أندية حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ابن هشام ، في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيكم الله من ركب ! بشكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه فيما قال ؟ ما نعلم ركباً أحق منكم ! فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أتتم عليه ، لم نأله أنفسنا خيراً » .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران . فأن الله أعلم أي ذلك كان . قال : ويقال والله أعلم : إن فيهم نزلت هذه الآيات : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ... » إلخ . قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ قال : ما زلت أجمع من علمائنا أنهم نزلن في النجاشي وأصحابه - رضى الله عنه - والآيات الثلاث في سورة المائدة : « ذلك بأن منهم قسيسين ورباناً ... » إلى قوله - فاكتمنا مع الشاهدين » .

وأياً ما كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات ، فالقرآن يرد للشركيين إلى حادث وقع ، يملونه ولا يشكروه . كي يفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن ، وتطمئن إليه ، وترى فيه الحق ، وتعلم مطابقتها لما بين أيديها من الكتاب . ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا من كبرياء ؟ وتحتل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجلاء ، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء .

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » . .

وهذه إحدى الآيات على صحته ، فالكتاب كله من عند الله ، فهو متطابق ، من أوتي أولاً عرف الحق في آخره ، فاطمأن له ، وآمن به ، وعلم أنه من عند الله الذي نزل الكتاب كله .

« وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به . إنه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين » ...

فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا الحق من قبل

أنه من ذلك للمين ، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذي لا يكذب . « إنه الحق من ربنا . . » « إنا كنا من قبله مسلمين » . والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين . هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل ، ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه :
« أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » ..

الصبر على الإسلام الخالص . إسلام القلب والوجه . ومقاومة الهوى والشهوة . والاستقامة على الدين في الأولى والآخرة . أولئك يؤتون أجرهم مرتين ، جزء على ذلك الصبر ، وهو عسير على النفوس ، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف . وهؤلاء صبروا عليها جميعا ، وصبروا على السخرة والإيذاء كما سقت الرواية ، وكما يقع دائما للمستبشرين على دينهم في المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة في كل زمان ومكان :
« ويدراون بالحسنة السيئة » ..

وهذا هو الصبر كذلك . وهو أهد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرة . إنه الاستملاء على كبرياء النفس ، ورغبتها في دفع السخرة ، ورد الأذى ، والشقاء من النعظ ، والبرد بالانتقام ثم درجة أخرى بعد ذلك كله . درجة السباحة الراضية . التي ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساهر بالطمأنينة والهدوء والرحمة والإحسان ؛ وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يسمعون الله فيرضاهم ويرضونه ، فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين .
« وبما رزقناهم ينفقون » ..

وكأنما أراد أن يذكر سمحة تقوسهم بالمال ، عقب ذكره لسمحة تقوسهم بالإحسان . فهما من منبع واحد : منبع الاستملاء على شهوة النفس ، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض . الأولى في النفس ، والثانية في المال . وكثيرا ما يردان متلازمين في القرآن .
وصفة أخرى من صفة النفوس المؤمنة الصابرة على الإسلام الخالصة للعبادة :
« وإذا سمعوا القوا أعرضوا عنه ، وقولوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم . لا نبئى الجاهلين » ..

والقوا فارغ الحديث ، الذي لا طائل تحته ، ولا حاصل وراءه . وهو المنذر الذي يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زادا جديدا ، ولا معرفة مفيدة . وهو البنىء من القول الذي يفسد الحس واللسان ، سواء : أوجه إلى مخاطب أم حكى عن غائب .

والقلوب المؤمنة لا تلتو ذلك اللغو ، ولا تستمع إلى ذاك الهذر ، ولا تفتى بهذا البذاء . فهي مشغولة بتكاليف الإيمان ، مرتعة بأشواقه ، متطهرة بنوره :

« وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » . .

ولكنهم لا يحتاجون ولا يتناولون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله ، ولا يدخلون معهم في جدل حوله ، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو ؛ إنما يتركونهم في موادة وسلام .

« وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم » . .

هكذا في أدب ، وفي دعاء بالخير ، وفي رغبة في الهداية .. مع عدم الرغبة في المشاركة :

« لا نبتغي الجاهلين » . .

ولا نريد أن تنفق معهم وقتنا الثمين ، ولا أن نجاريهم في لغوهم أو نسمع إليه صامتين ! .
إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة الطمئة إلى إيمانها . تفيض بالترفع عن اللغو . كما تفيض بالساحة والود . وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحا لا لبس فيه . فلا مشاركة للجهال ، ولا غفاسة لهم ، ولا موجدة عليهم ، ولا ضيق بهم . إنما هو الترفع والساحة وحسب الخير حتى للجارم المسيء .



هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب لم يزد الرسول - صلى الله عليه وسلم - في جهاده معهم للإيمان على أن يتلو عليهم القرآن . ووراءه من قومه من جهد جهده ليؤمن ؛ ومن أحب بكل نفسه أن يهديه للإسلام . فلم يقدر الله له ذلك لأمر يعلمه من نفسه . وما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يهدي من يحب . إنما يهدي الله من يعلم من نفسه ما يستحق به الهدى ومن هو مستعد للإيمان . .

« إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين » . .

ورد في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كان يحوطه وينصره ، ويقف دونه في وجه قريش ، ويحميه حتى يبلغ دعوته ، ويحتمل في سبيل ذلك مقاطعة قريش له ولبنى هاشم وحصارهم في الشعب . ولكنه إنما يفعل ذلك كله لابن أخيه ، وحمية وإباء ونخوة . فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الإيمان والدخول في الإسلام ، فلم يكتب الله له هذا ، لما يعلمه سبحانه من أمره . .

قال الزهري: حدثني سعيد ابن السيب عن أبيه وهو السيب ابن حزن الخزومي - رضى الله عنه - قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجد عنده أبا جهل ابن هشام وعبد الله ابن أمية ابن النخيلة . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عم قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله ابن أمية : يا أبا طالب أرغب عن ملة عبد المطلب ؟ قال يزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرضها عليه ويمودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى » . وأنزل في أبي طالب : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » . (أخرجه في الصحيحين من حديث الزهري) .

ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث يزيد ابن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يا عمه . قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة » قال : لولا أن تمرني بها قريش يقولون : ما حملها عليها إلا جزع الموت لأفرت بها عينك . لا أقولها إلا لأقربها عينك . ونزل قول الله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » . وروى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة أنها نزلت في أبي طالب . وكان آخر ما قاله : هو على ملة عبد المطلب .

وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذاً بصرامة هذا الدين واستقامته . فهذا عمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكافله وحايه والله الداعية ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة حبه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشدة حب رسول الله له أن يؤمن . ذلك أنه إنما قصد إلى عصية القرابة وحب الأيوه ، ولم يقصد إلى العقيدة . وقد علم الله هذا منه ، فلم يقدر له ما كان يحبه له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويرجوه . فأخرج هذا الأمر - أمر الهداية - عن حصة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجعله خاصاً بإرادته سبحانه وتقديره . وما على الرسول إلا البلاغ . وما على الداعين بعده إلا النصيحة . والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن ، والهدى والضلال وفق ما يمل به من قلوب البعاد واستعدادهم للهدى أو للضلال .

والآن يجرى السياق إلى قولهم الذى قالوها للرسول - صلى الله عليه وسلم - متذرين عن اتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة ، التى تعظم الكعبة ، وتدين لسدتها ، وتعظم أصنامها ، فتخطفهم تلك القبائل ، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل . فبين لم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخى ، ومن حاضرم الذى يشهدونه ، بما أبان لهم فى هذه السورة عن ذلك فى قصة موسى وفرعون . ويجول معهم جولة فى مصارع الفارين تكشف لهم كذلك عن أسباب الهلاك الحقيقية ممثلة فى البطر وقلة الشكر والتكذيب بالرسول والإعراض عن الآيات . ثم جولة أخرى أبعد تكشف عن حقيقة القيم وتبدو فيها ضالة الحياة الدنيا كلها ومتاعها إلى جوار ما عند الله .

« وقالوا: إن تتبع الهدى معك تنخطف من أرضنا . أو لم تمكن لهم حرما آمنا يجي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون . وكما أهلكننا من قرية بطرت معيشتها ، فذلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون . وما أوتيتم من شيء فنتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تملكون ؟ أفئن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقية كئن متناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ » ..

إنها النظرة السطحية القرية ، والتصور الأرضى المحدود ، هو الذى أوحى لقريش وهو الذى يوحى للناس أن اتباع هدى الله يرضهم للخافة ، ويضرى بهم الأعداء ، ويفقدهم المون والنصير ، ويسود عليهم بالفقر والبوار :

« وقالوا: إن تتبع الهدى معك تنخطف من أرضنا » ..

فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم يشنون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامى ؟ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم فى حى الله ؟ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخاطب قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأشور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا فى جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا فى البعد عن هداة . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالرة ؟ وأن هذا ليس وهما وليس قولاً يقال لطمأنة القلوب . إنما هو

حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناهوس الكون وقواه ، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة . فأنه خالق هذا الكون ومديره وفق الناموس الذى ارتضاه له . والذى يتبع هدى الله يستمد بما في هذا الكون من قوى غير محدودة ، ويأوى إلى ركن شديد ، في واقع الحياة .

إن هدى الله منهج حياة صحيحة . حياة واقعة في هذه الأرض . وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية . وميزة أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ ولا يقتضى إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطها بما يربط واحد : صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها . بشرط اتباع هدى الله . والتوجه إليه بالعمل والاطلاع إلى رضاه .

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنة والسيادة في نهاية اللطاف ؛ بعد إعدادها لحل هذه الأمانة . أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة .

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هده . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من اللضايق الاقتصادية وغير الاقتصادية ؛ وإن هى إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن تتبع الهدى ملك تنخطف من أرضنا » . فلما اثبت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان .

وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا المنذر للوهم . فمن الذى وهبهم الأمن ؟ ومن الذى جعل لهم البيت الحرام ؟ ومن الذى جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعا ؟ تتجمع في الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكبيرة : « أو لم يمكن لهم حرماننا ينجي إليهم ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ؟ » .

فيا لهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذى يمكن لهم هذا

الحرم الآمن منذ أيام أبهم إبراهيم ؟ أفن أمنهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ؟
« ولكن أكثرهم لا يملون » ..

لا يملون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يملون أن مرد الأمر كله لله .
فأما إن أرادوا أن يتقوا لله ، وأن يأمنوا التخطف حقاً ، فهأى ذى علة
المهلك فليقتوها :

« وكما أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ،
وكننا نحن الوارثين » ..

إن بطل النعمة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله
ذلك الحرم الآمن ؟ فليحذروا إذن أن ييطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم المهلك كما حل
بالقرى التي يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الدائرين خاوية خالية .. « لم تسكن من
بدمهم إلا قليلاً » . وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها ، وتروى قصة البطر بالنعمة ؟ وقد
فنى أهلها فلم يبقوا أحداً ، ولم يرثها بعدهم أحد « وكنا نحن الوارثين » .

على أن الله لم يهلك تلك القرى للتبصرة إلا وقد أرسل في أمها رسولا . فتلك هي سنته
التي كتبها على نفسه رحمة بعباده :

« وما كان ربك مهلك القرى حق يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا
مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » ..

وحكمة إرسال الرسول في أم القرى - أي كبرائها أو عاصمتها - أن تكون مركزاً تبلغ منه
الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبي - صلى الله عليه
وسلم - في مكة أم القرى العربية . فهو ينذرهم عاقبة للكافرين قبلهم بمد ما جاءهم النذير .
« وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » .. يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين !
على أن متاع الحياة الدنيا بكماله ، وعرض الحياة الدنيا جميعه ، وما مكنهم الله فيه من
الأرض ، وما وهبهم إياه من الثمرات ، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة ، إن هو
إلا شيء ضئيل زهيد ، إذا قيس بما عند الله :

« وما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها . وما عند الله خير وأبقى . أفلا تعقلون ؟ » .
وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ؟ ولا لما

يمن به الله عليهم من التمكن والثمار والأمان وحده ؛ ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكتها بالتبطر فيه وحده . إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو سلخ ، وحتى لو كلل ، وحتى لو دام ، فلم يقبه الهلاك والدمار . إنه كله « متاع الحياة الدنيا وزينتها » . .
« وما عند الله خير وأبقى » خير في طبيعته وأبقى في مدته .
« أفلا تعقلون ؟ » ..

والفاصلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك . ومن ثم يجرى التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار !
وفي نهاية هذه الجولة يمرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة ، ولن شاء أن يختار :
« أفئن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقية كمن متعاه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ » ..

فهذه صفحة من وعده الله وعدا حسنا فوجده في الآخرة حقا وهو لا بد لاقية . وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد ، ثم هاهو ذا في الآخرة عسر إحضاراً للحساب . والتعير يوحى بالإكراه « من المحضرين » الذين يجاء بهم مكرهين خاضعين يودون أن لم يكونوا محضرين ، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك التمتع القصير الزهيد ! وتلك نهاية اللطاف في الرد على مقاتليهم : « إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » الحق لو كان ذلك كذلك ، فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين ! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين ، ومعه المطاء في الآخرة والأمان ؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا التافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون ، ولا يرفون أين تكون الخافة وأين يكون الأمن . وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار .

وعندما يصل بهم إلى الشاطئ الآخر يحول بهم جولة أخرى في مشهد من مشاهد القيامة ، يصور مغبة مام فيه من الشرك والقوابة :
« ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغويناهم كأغوينا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل : ادعوا

شركاءكم . فدعوه فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يبدون .
« ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتكم للرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فعم لا
يتساءلون . فأما من تاب وآمن وعمل صالحا ، فمى أن يكون من الفلحين » ..
والسؤال الأول للتوبيخ والتأنيب :

« أين شركائ الذين كنتم تزعمون ؟ » ..
والله يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء ، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئا ،
ولا يستطيعون إليهم سبيلا . ولكنه الحزى والفضيحة على رؤوس الأشهاد .
ومن ثم لا يجب المسؤولون عن السؤال ، فليس للقصد به هو الجواب ! إنما يحاولون
أن يثيروا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم ، وصدمع عن هدى الله ، كما كان يفعل كبراء
قريش مع الناس خلفهم ، فيقولون :

« ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا؟ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يبدون !
ربنا إنا لم نقوم قسرا ، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم ؟ إنما هم وقعوا فى القواية عن
رضى منهم واخييار ، كما وقفنا نحن فى القواية دون إيجابار . « تبرأنا إليك » من جرمة
إغوائهم . « ماكانوا إيانا يبدون » إنماكانوا يبدون أصناما وأوثانا وخلقا من خلقك ، ولم
نجعل أنفسنا لهم آلهة ، ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة !
عندئذ يعود بهم إلى الهزاة التى حولوا الحديث عنها . هزاة الشركاء الذين اغذوهم من
دون الله :

« وقيل : ادعوا شركاءكم » ..
ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم ! ادعوهم ليلبوكم وينقذك ! ادعوهم فهذا يومهم
وهذه فائدتهم !

والبالسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم ، ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين :

« فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » ..
ولم يكن منتظرا غير ذلك ، ولكنه الإذلال والإعنات !
« ورأوا العذاب » ..

رأوه في هذا الحوار . ورأوه مائلا وراءه . فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب .
وهنا في اللحظة التي يصل فيها الشهيد إلى ذروته يمرض عليهم الهدى الذي يرفضونه ،
وهو أمنية للتمنى في ذلك الموقف للكروب : وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون :
« لو أنهم كانوا يهتدون » ..

ثم يعود بهم إلى ذلك الشهيد للكروب :

« ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجيتم للرسلين ؟ » ..

وإن الله يعلم ماذا أجابوا الرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإتهم
ليواجهون السؤال بالدهول والصمت . دهول للكروب وصمت الذي لا يجد ما يقول :

« فصيت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » .

والتبشير يلقي ظل المسمى على الشهيد والحركة . وكأنما الأنبياء عبياء لا تصل إليهم ،
وهم لا يعلمون شيئا عن أى شئ ! ولا يملكون سؤال ولا جوابا . وهم في دهولهم صامتون
ما كنتون !

« فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فسي أن يكون من المفلحين » . .

وهذه هي الصفحة للقابلة . ففي الوقت الذي يبلغ الكروب ذروته بالشركيين ، يتحدث
عن من تاب وآمن وعمل صالحا ، وما ينتظره من الرجاء في الفلاح . ولن شاء أن يختار . وفي
الوقت فحة للاختيار !

ثم يرد أمرهم وأمر كل شئ إلى إرادة الله واختياره ؛ فهو الذي يخلق كل شئ ، ويعلم
كل شئ ، وإليه مرد الأمور كله في الأولى والآخرة ، وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم في
الدنيا وله الرجعة والمآب . وما يملكون أن يختاروا لأنفسهم ولا لنبيهم ، فإله يخلق ما يشاء
ويختار :

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحانه الله وتعالى عما يشركون .
وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ،
وله الحكم وإليه ترجعون » ..

وهذا التقييد يعنى بعد حكاية قولهم : « إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » وبعد

استعراض موقفهم يوم الحساب على الشرك والنفوة .. يجيء لتقرير أنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم فيختاروا الأمن أو المخافة ! ولتقرير وحدانية الله ورد الأمر كله إليه في النهاية .

« وربك يخلق ما يشاء ويختار . ما كان لهم الخيرة » ..

إنها الحقيقة التي كثيرا ما ينساها الناس ، أو ينسون بعض جوانبها . إن الله يخلق ما يشاء ؛ لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئا ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئا ، ولا أن يبدل أو يبدل في خلقه شيئا . وإنه هو الذي يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ؛ ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصا ولا حادثا ولا حركة ولا قولاً ولا فعلاً .. « ما كان لهم الخيرة » لافي شأن أنفسهم ولا في شأن غيرهم ، ومرد الأمر كله إلى الله في الصغير والكبير ..

هذه الحقيقة لو استقرت في الأخلاق والضمائر لما سخط الناس شيئا يحل بهم ، ولا استخفهم شيء ، ينالونه بأيديهم ، ولا أحزنهم شيء ، يفوتهم أو يفلت منهم . فليسوا هم الذين يختارون ، إنما الله هو الذي يختار .

وليس معنى هذا أن يلقوا عقولهم وإرادتهم ونشاطهم . ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع - بعد أن يبدلوا ما في وسمهم من التفكير والتدبير والاختيار - بالرضى والتسليم والقبول . فإن عليهم ما في وسمهم والأمر بعد ذلك لله .

ولقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة ؛ والله وحده هو الخالق المختار لا شريك له في خلقه ولا في اختياره ..

« سبحان الله وتعالى عما يشركون » ..

« وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » ..

فهرجاءهم بما يعلم من أمرهم ، مختار لهم ما هم له أهل ، من هدى أو ضلال .

« وهو الله لا إله إلا هو » .. فلا شريك له في خلق ولا اختيار .

« وله الحمد في الأولى والآخرة » .. على اختياره ، وعلى نعمائه ، وعلى حكمته وتدبيره ، وعلى عدله ورحمته ، وهو وحده المختص بالحمد والثناء .

« وله الحكم » .. يقضى في عبادته بقضائه ، لا راد له ولا مبدل لحكمه .

« وإليه ترجعون » .. فيقضى بينكم قضاءه الأخير ..

وهكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرّد إرادته في هذا الوجود وإطلاعه على سرهم وعلايتهم فلا تخفى عليه منهم خافية ؛ وإليه مرجعهم فلا تترد منهم شاردة . فكيف يشركون بالله بعد هذا وهم في قبضته لا يفلتون ؟

ثم يجول بهم جولة في مشاهد الكون الذي يعيشون فيه غافلين عن تدبير الله لهم ، واختياره لحياتهم ومعاشهم ؛ فيوقظ مشاعرهم لظاهرتين كونيتين عظيمتين . ظاهرتي الليل والنهار ، وما وراءهما من أسرار الاختيار والشهادة بوحداية الخالق المختار :

« قل : أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل : أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، وللملوك تشكرون » ..

والناس لطول ما اعتادوا من كر الجديدين ينسون جذتهما للذكورة التي لا تبلى . ولا يروعم مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلا . ولا يهزم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادرا . ولا يتدبرون ما في نوالهما من رحمة بهم وإعجاز من البلى والدمار ، أو التعطل والبوار ، أو اللل والهمود .

والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والمادة ، ويلقّتهم إلى عملى الكون من حولهم ومشاهده العظيمة ؛ وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبدا أو النهار أبدا ، وحين يخفهم من عواقب هذا وذاك . وما يشر الإنسان ببيعة الشيء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان . « قل : أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ » ..

والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلا في أيام الشتاء ، وعنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم قرة وراء السحاب ؛ فكيف بهم لو قدقوا الضياء . ولو دام عليهم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ؟ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمرصنة للتلف والبوار ، لو لم يطلع عليها النهار !

« قل : أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ » (١) . .

والناس يستريحون الظلال حين يطول عليهم المهجر ساعات من النهار . ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات في الصيف . ويحبون في ظلام الليل وسكونه للهدوء والقرار . والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار . فكيف بالناس لو ظل النهار سرمداً إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها معرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار !

ألا إن كل شيء بقدر . وكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون بتقدير . وكل شيء عنده بمقدار : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتنبهوا من فضله وللملك تشكرون » . . فالليل سكنة وقرار ، والنهار نشاط وعمل ، والتجّه فيه إلى فضل الله . فما يسطي الناس شيئاً إلا من فضله « وللملك تشكرون » ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة ، وما دبره لكم واختاره من توالى الليل والنهار ، ومن كل سنن الحياة التي لم تختاروها ، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تفعلون عنها لطول الإلف والتكرار .

ويختم هذه الجولات بمشهد سريع من مشاهد القيامة يسألهم فيه سؤال احتسار عما زعموا من شركاء . ويقفهم وجهاً لوجه أمام أباطيلهم للدعاة ، حيث تضارب وتهاوى في موقف السؤال والحساب :

« ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا : هاتوا برهانكم . فسلموا أن الحق لله ، وصل عنهم ما كانوا يفترون » . .

ونصوير يوم النداء ، وما فيه من سؤال عن الشركاء ، قد سبق في جولة ماضية . فهو يمداد هنا لتوكيده وتثبيتته بمناسبة للشهد الجديد الذي يمرض هنا . مشهد نزع شهيد من كل أمة . وهو نبيا الذي يشهد بما أجا به وما استقبلت به رسالته . والنزع حركة شديدة ، والقصود

(١) حين ذكر الليل لو كان سرمداً قال : « أفلا تسمعون ؟ » وحين ذكر النهار لو كان سرمداً قال : « أفلا تبصرون ؟ » ذلك أن السمع هو حاسة الليل والبصر هو حاسة النهار وذلك من التناقض الذي في الأضداد .

إقامته وإبرازه وإفراذه من بينهم ليشهد قومه جميعا وليشهد قومه جميعا . وفي مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا وما فعلوا . وليس لديهم برهان ؟ ولا سبيل لهم يومئذ إلى الكابرة :

« فعلوا أن الحق لله » . . الحق كله خالصا لاشبهة فيه ولا ريبه .

« وضل عنهم ما كانوا يفترون » . . من شرك ومن شركاء ، فما هو بواجبهم وما هم بواجديه في وقت حاجتهم إليه في موقف الجدل والبرهان !

بهذا تنتهي التعقيبات على قصة موسى وفرعون . وقد طوقت بالنفوس والقلوب في تلك الآفاق والعوالم والأحداث والشاهد . وردتها من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة إلى الدنيا . وطوقت بها في جنبات الكون وفي أغوار النفس ، وفي مصارع العابرين ، وفي سنن الكون والحياة . متناسقة كلها مع محور السورة الأصيل . ومع القصتين الرئيسيتين في السورة : قصة موسى وفرعون . وقصة قارون . وقد مضت الأولى . فلنستعرض الثانية بعد تلك التعقيبات وهذه الجولات .

« إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحِيهُ لَتُنَوَّى بِالْعِصْيَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِينِ * قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي . أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا ؟ وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ .

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيَلَيْسُ لَكُمْ قَوْلُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ .

« فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

« تِلْكَ الْأْدَارُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي لِّلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْمُتَابِعَةُ لِلْمُغْتَفِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ » ..

مضت مطالع السورة بقصة موسى وفرعون ، وقد عرضت فيها قوة السلطان والحكم ، وكيف باتت بالبوار مع البني والظلم ، والكفران بالله ، والبدع عن هداة . وآلان نجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهي بالبوار مع البني والبطر ، والاستكبار على الخلق ووجود نعمة الخالق . وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد .

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها ؛ إنما يكتفي بأن قارون كان من قوم موسى فبنى عليهم . فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى في مصر قبل الخروج ؟ أم وقعت بعد الخروج في حياة موسى ؟ أم وقعت في بني إسرائيل من بعد موسى ؟ هناك روايات تقول : إنه كان ابن عم لموسى - عليه السلام - وأن الحادث وقع في زمان موسى . ويزيد بعضها فيذكر أن قارون أذى موسى ، ودبر له مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة في مقابل رشوة من المال ، فبأمر الله موسى وأذن له في قارون ، فخسفت به الأرض ..

ولسنا في حاجة إلى كل هذه الروايات ، ولا إلى تحديد الزمان والمكان . فالقصة كما وردت في القرآن كافية لأداء الترض منها في سياق السورة ، ولتقرير القيم والقواعد التي جاءت لتقرررها . ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد في دلالتها شيئا ما ترك

تجديدها . فلنستمرضا إذن في صورتها القرآنية، بميدة عن تلك الروايات التي لا طائل وراها..

« إن قارون كان من قوم موسى فينبى عليهم ؛ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتتوء بالصبة أولى القوة . إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ في آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندي » ..

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم بطلها « قارون » وتحدد قومه « قوم موسى » وتقرر مسلكه مع قومه ، وهو مسلك البنى « فينبى عليهم » وتشير إلى سبب هذا البنى وهو الثراء : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتتوء بالصبة أولى القوة » ..

ثم نغضى بمد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والاتصالات التي صاحبها في النفوس . لقد كان قارون من قوم موسى ، فأتاه الله مالا كثيرا ، يصور كثرة بأنه كنوز - والكنز هو المخبوء للدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول - وبأن مفاتيح هذه الكنوز نعي المجموعة من أقبوا الرجال . . من أجل هذا بنى قارون على قومه . ولا يذكر فيم كان البنى ، ليدعه مجهلا يشمل شق الصور . فرما بنى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم - كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان - وربما بنى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال . حق الفقراء في أموال الأغنياء ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم معاويج إلى شيء منه ، فتنسد القلوب ، وتضمد الحياة . وربما بنى عليهم ههنا وبههنا من الأسباب . وعلى أية حال قد وجد من قومه من يحاول رده عن هذا البنى ، ورجعه إلى النهج القويم ، الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء ؛ وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ؛ ولا يحرمهم المتاع المتدلل بما وهبهم الله من مال ؛ ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ؛ وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم ، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب :

« إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ في آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض . إن الله لا يحب المفسدين » .

وفي هذا القول جاع مافي المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة .

« لا تفرح » .. فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالسكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ .. لا تفرح فرح البطر القدي ينسى المنعم بالمال ؟ وينسى نعمته ، وما يجب لها من الحمد والشكران . لا تفرح فرح الذي يستغفه المال ، فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ، ويتناول به على العباد ..

« إن الله لا يحب الفرحين » .. فهم يردونه بذلك إلى الله ، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال ، المتباهين ، المتناولين بسلطانه على الناس .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » .. وفي هذا يتشمل اعتدال المنهج الإلهي القويم . المنهج الذي يلقى قلب واجد المال بالآخرة . ولا يجرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة . بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا ، كي لا يزهّد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها .

لقد خلق الله طيات الحياة ليستمتع بها الناس ؛ وليعموا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتتمو الحياة وتتجدد ، وتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض . فلك على أن تكون وجهتهم في هذا للمتاع هي الآخرة ، فلا ينصرفون عن طريقها ، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها . والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للنعم ، وتقبل لمطايه ، وانتفاع بها . فهو طاعة من الطاعات يجزى عليها الله بالحسن .

وهكذا يحقق هذا المنهج التبادل والتناسق في حياة الإنسان ، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية للتعاضد ، التي لا حرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة القطرية البسيطة .

« وأحسن كما أحسن الله إليك » .. فهذا المال هبة من الله وإحسان . فليقابل بالإحسان فيه . إحسان التقبل وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران .

« ولا تبغ الفساد في الأرض » .. الفساد بالبنى والظلم . والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة . والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء . والفساد

باتفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال .

« إن الله لا يحب المفسدين » . . كما أنه لا يحب الترحين .

كذلك قال له قومه : فكان رده جملة واحدة ، تحمل شق معاني الفساد والإفساد :

« قال : إنما أوتيته على علم عندي ! »

إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على على الذي طوع لى جمه وتحصيله . فلما لكم تعلمون على طريقة خاصة في التصرف فيه ، وتحكمون في ملكيتي الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص ، واستحقته بعلى الخاص ؟

إنها قولة التور للطموس الذى ينسب مصدر النعمة وحكمها ، ويفتته للمال وبعيه الثراء . وهو نموذج مكرر فى البشرية . فكلم من الناس يظن أن علمه وكلمه هما وحدهما سبب غناه . ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يملك ، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح ، غير حاسب لله حسابا ، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه !

والإسلام يترق بالملكية الفردية ، وقدر الجهد الفردى الذى بذل فى تحصيلها من وجوه الحلال التى يشرعها ؟ ولا يهون من شأن الجهد الفردى أو يلبسه . ولكنه فى الوقت ذاته يفرض منهاجا معينا للتصرف فى الملكية الفردية — كما يفرض منهاجا لتحصيلها وتنميتها — وهو منهاج متوازن متعادل ، لا يحرم الفرد ثمرة جهده ، ولا يطلق يده فى الاستمتاع به حتى الترف ، ولا فى إمساكه حتى التفتير ؟ ويفرض للجماعة حقوقها فى هذا المال ، ورقابها على طرق تحصيله ، وطرق تنميته . وطرق إنفاقه والاستمتاع به . وهو منهاج خاص واضح الملامح متميز السمات .

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ، ولم يخضع لمنهجه القوم . وأعرض عن هذا كله فى استكبار لثيم وفى بطر ذنم .

ومن ثم جاء التهديد قبل تمام الآية ، ردا على قولته الفاجرة للتوروة :

« أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » .

فإن كان ذا قوة وذا مال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر

مالا . وكان عليه أن يعلم هذا . فهذا هو العلم المنجى . فليعلم . وليعلم أنه هو وأمثاله من
المجرمين أهون على الله حق من أن يسألهم عن ذنوبهم . فليسوا هم الحكم ولا الأَشهاد !
« ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » !



ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة ، يتجلى فيه البنى والتناول ، والإعراض عن
النصح ، والتعالى على العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال ، والبطر الذى يقعد
بالنفس عن الشكران .

ثم يبعثُ للشهد الثانى حين يخرج قارون بزنته على قومه ، فتطير لها قلوب فريق منهم ،
وتهاوى لها نفوسهم ، ويتمنون لأتقسّم مثل ما أوتى قارون ، ويحسون أنه أوتى حظا عظيما
يتشاهه المحرمون . ذلك على حين يستيقظ الإيمان فى قلوب فريق منهم فيتمزّون به على فتنة
المال وزينة قارون ، ويدكرون إخوانهم المهورين المأخوذين ، فى ثقة وفى يقين :

« فخرج على قومه فى زينته قال الدين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثلما أوتى قارون .
إنه لدو حظ عظيم . وقال الدين أوتوا العلم : وليكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ،
ولا يلقاها إلا الصابرون » .

وهكذا وقعت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المهور المتهاوى المتهافت ،
ووقفت طائفة أخرى تستلج على هذا كله بقيمة الإيمان ، والرجاء فيها عند الله ، والاعتراف بثواب
الله . والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان فى الميزان :

« قال الدين يريدون الحياة الدنيا: ياليت لنا مثل ما أوتى قارون . إنه لدو حظ عظيم ..
وفى كل زمان ومكان تستهوى زينة الأرض بعض القلوب ، وتبهر الدين يريدون الحياة
الدنيا ، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ؛ فلا يسألون بأى ثمن نأخذ ما نريد .
الزينة زينته ؟ ولا بأى الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه .
ومن ثم تهافت نفوسهم وتهاوى ، كما تهافت اللذباب على الحلوى وتهاوى ، ويسيل لعابهم على
ما فى أبهى المحطوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذى أدوه ، ولا إلى الطريق
الذى حاصروه ، ولا إلى الوسيلة الحسيسة التى اتخذوها .

فاما المتصليون بالله فلمهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفى نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال

والزينة والمتاع . وهم أعلى نفسا ، وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جيبا . ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد . وهؤلاء هم « الذين أوتوا العلم » . العلم الصحيح الذى يقومون به الحياة حق التقويم :

« وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون » .

ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون . والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون . . الصابرون على ماير الناس ومقاييسهم . الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها . الصابرون على الحرمان مما ينشأه الكثيرون . وعندما يلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة . درجة الاستعلاء على كل ما فى الأرض ، والتطلع إلى ثواب الله فى رضى وثقة واطمئنان .

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها ، وتهافت أمامها النفوس وتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة ، وترحم الناس الضعاف من إغرائها ، وتحطم الثرور والكبرياء تحطيا . ويهيئ للشهد الثالث حاسما فاصلا :

« فحسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فتنة ينصرونه من دون الله ، وما كان من النصيرين » ..

هكذا فى جملة قصيرة ، وفى لغة خاطفة : « فحسفنا به وبداره الأرض » قابلته وابتلته داره ، وهوى فى بطن الأرض التى علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا . وذهب ضيفا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال .

وهوت معه الفتنة الطاغية التى جرفت بعض الناس ؛ وردتهم الضربة القاسية إلى الله ؛ وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال . وكان هذا للشهد الأخير :

« وأصبح الذين تمنوا بالأس يقولون : وى ! كأن الله يسلط الرزق لمن يشاء من عباده ويشدر . لولا أن من الله علينا لحسف بنا . وى ! كأنه لا يفلح الكافرون » ..

وقهوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأس ، ولم يؤتهم ما آتى قارون . وهم يرون للسير البائس الذى انتهى إليه بين يوم وليلة . وصحوا إلى أن التراء ليس آية على رضى

الله . فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والنضب . ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف . إنما هو الابتلاء الذى قد يعقبه البلاء . وعلموا أن الكافرين لا يفلحون . وقارون لم يجهز بكلمة الكفر ولكن اغتراره بالمال ، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه فى عداد الكافرين ، ورون فى نوع هلاكه أنه هلاكه للكافرين .

ويسدل الستار على هذا للشهد . وقد انتصرت القلوب للؤمننة بتدخل القدرة السافرة . وقد رجحت قيمة الإيمان فى كفة لليزان .. ثم يأخذ فى التعقيب فى أنسب أوان :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا . والعاقبة للمتقين » .. تلك الآخرة التى تحدث عنها الدين أوتوا العلم . العلم الحق الذى يقوم الأشياء قيمتها الحقيقية . تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق . تلك الدار الآخرة « نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » .. فلا يقوم فى نفوسهم خاطر الاستسلام بأنفسهم لأنفسهم ؛ ولا يهيج فى قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها . إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليلأها الشعور بالله ، ومنهجه فى الحياة . أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشياءها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا . ولا ينفون فيها كذلك فسادا . أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة . تلك الدار العالية السامية .

« والعاقبة للمتقين » الذين يخشون الله ويراقبونه ويتخرجون من غضبه ويتقنون رضاه . وفى تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه . الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها . والسيئة بمثلها رحمة بضعف الحلق وتيسيرا :

« من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » ..

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأٰهُ اِذْكَ اِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ : رَبِّ اَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدٰى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلٰلٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُو اَنْ يُبٰلِغَ اِلَيْكَ الْكِتٰبُ اِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُوْنَنَّ ظٰلِمًا لِّلْكَٰفِرِيْنَ * وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ اٰيٰتِ اللّٰهِ بَدَ اِذْ اُنزِلَتْ اِلَيْكَ ، وَاَدْعُ اِلَىٰ رَبِّكَ ، وَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّرِيْكَىْنَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ اِلٰهًا اٰخَرَ ؛ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ . لَهُ الْحُكْمُ وَاِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ » ..

والآن وقد انتهى القصص ، وانهت التفتيات المباشرة على ذلك التخص . الآن يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن خلفه القلة المسلة التي كانت يومها بمكة . يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مخرج من بلده ، مطارداً من قومه ، وهو في طريقه إلى المدينة لم يلحقها بعد ، فقد كان بالجلفة قريباً من مكة ، قريباً من الخطر ، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذي يحبه ، والذي يمز عليه فراقه ، لولا أن دعوته أعز عليه من بلده وموطن مباء ، ومهد ذكرياته ، ومقر أهله . يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في موقفه ذلك :

« إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ..

فما هو بتاركك للشركين ، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة . ما هو بتاركك للشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك ، ويستبدون بك وبدعوتك ، ويقتلون المؤمنين من حولك . إنما فرض عليك القرآن لينصرك به في الموعد الذي قدره ، وفي الوقت الذي فرضه ؟ وإنك اليوم تخرج منه مطارداً ، ولكنك غدا منصور إليه عائد .

وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد في ذلك الظرف المكروب ، لبعضى - صلى الله عليه وسلم - في طريقه آمناً واتقاً ، مطمئناً إلى وعد الله الذي يعلم صدقه ، ولا يستريب لحظة فيه .

وإن وعد الله قائم لكل السالكين في الطريق ؟ وإنه ما من أحد يؤذى في سبيل الله ، فيصبر ويستيقن إلا نصره الله في وجه الظلمة في النهاية ، وتولى عنه الحركة حين يذلل مافي سومه ، ويخلى عاقبه ، ويؤدى واجبه .

« إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » . ولقد رد موسى من قبل إلى الأرض التي خرج منها هارباً مطارداً . رده فأثبت به للمستضعفين من قومه ، ودمر به فرعون وملاه ، وكانت العاقبة للمهتدين .. فامض إذن في طريقك ، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذي فرض عليك القرآن :

« قل : ربى أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو فى ضلال مبين » ..

ودع الأمر لله يجازى للمتدين والضالين .

وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة ؛ وما كان يحول فى خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقى هذه الأمانة . وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه :

« وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » ..

وهو تقرير قاطع عن عدم تطلع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الرسالة ؛ إنما هو اختيار الله . والله يخلق ما يشاء ويختار ، فذلك الأفق أسمى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله ليرفاه . وهو رحمة من الله بنبيه وبالبشرية التى اختاره لهدايتها بهذه الرسالة . رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين . ولقد كان من حوله كثيرون فى العرب وفى بنى إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة للتظرة فى آخر الزمان ، ولكن الله - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - قد اختار لها من لم يتطلع إليها ولم يرجها ، من دون أولئك الطامعين التطلعين ، حينما علم منه الاستعداد لتلقى ذلك الفيض العظيم .

ومن ثم يأمره به - بما أنعم عليه بهذا الكتاب - ألا يكون ظهيرا للكافرين ؛ ويحذره أن يصدوه عن آيات الله ؛ ويحض له عقيدة التوحيد خالصة فى وجه الشرك وللشركيين .

« فلا تكونن ظهيرا للكافرين ؛ ولا يصدنك عن آيات الله بمد إذ أنزلت إليك ؛ وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو . كل شيء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون » ..

لأنه الإيقاع الأخير فى السورة ، يفصل ما بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطريقه وما بين الكفر والشرك وطريقه . ويبين لأتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طريقهم إلى يوم القيامة .. الإيقاع الأخير ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى طريق هجرته الفاصلة بين عهدين متميزين من عهود التاريخ .

« فلا تكونن ظهيرا للكافرين » .. لما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين . وطريقاهما مختلفان ، ومنهجاهما مختلفان . أولئك حزب الله ، وهؤلاء حزب الشيطان . فلام يتعاونان ؟ وقيم يتعاونان ؟

« ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك » . . فطريق الكفار دائماً أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشق الطرق والوسائل . وطريق المؤمنين أن يحضوا في طريقهم لا يلوهم عنها الموقنون ، ولا يصدم عنها أعداؤهم . وبين أيديهم آيات الله ، وهم عليها مؤمنون .

« وادع إلى ربك » . . دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصية ، ولا لأرض ولا لراية . ولا لمصلحة ولا لمنم ، ولا لتخليق هوى ، ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجربتها فليتبها ، ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق .

« ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر » يؤكد هذه القاعدة مرتين بالنهي عن الشرك والنهي عن اتخاذ إله آخر مع الله . ذلك أنها مفرق الطريق في العقيدة بين النصاعة والغموض . وعلى هذه القاعدة يقوم بناء هذه العقيدة كلها ، وآدابها وأخلاقيها وتكاليها وتشريعاتها جميعا . وهى المحور الذى يلتف عليه كل توجيه وكل تشريع . ومن ثم هى تذكر قبل كل توجيه وقبل كل تشريع .

ثم يعمى فى التوكيد والتقرير :

« لا إله إلا هو » . . « كل شيء هالك إلا وجهه » . . « له الحكم » . . « وإليه ترجعون » . .

« لا إله إلا هو » . . فلا إسلام إلا لله ، ولا عبودية إلا له ، ولا قوة إلا قوته ، ولا ملاذ إلا حماء .

« كل شيء هالك إلا وجهه » . . فكل شيء زائل . وكل شيء ذاهب . للال والجلال . والسلطان والقوة . والحياة والتنازع . وهذه الأرض ومن عليها . وتلك السماوات وما فيها ومن فيها . وهذا الكون كله ما نملئه منه وما نجعله . . كله . كله . هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي . متفردا بالبقاء .

« له الحكم » . . يقضى بما يشاء ، ويحكم كما يشاء ، لا يشركه فى حكمه أحد ، ولا يرد قضاءه أحد ، ولا يقف لأمره أمر . وما يشاؤه فهو الكائن دون سواء .

« وإليه ترجعون » . . فلا مناص من حكمه ، ولا مفر من قضاءه ، ولا ملجأ دونه ولا مهرب .



وهكذا تختم السورة التي تتجلى فيها يد القدرة سافرة ، تحرس الدعوة إلى الله وتحمها ، وتدمر القوى الطاغية الباغية وتمحوها . تختم بتقرير قاعدة الدعوة : وحدانية الله سبحانه وتفرد الألوهية والبقاء والحكم والقضاء . ليخفى أصحاب الدعوات في طريقهم على هدى ، وعلى ثقة ، وعلى طمأنينة ، وفي يقين . .

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ مَكِّيَّةٌ

وَأَيَّاسُهَا ٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الَمْ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا: آمَنَّا، وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟ • وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ • أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ • مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ • وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ.

«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا، وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ • وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ.

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: آمَنَّا بِاللَّهِ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةِ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ، وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ • أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ النَّاسِ؟ • وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ.

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ، وَمَا نُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ • وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ • وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنَّا لَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ، وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ.»

سورة النكבות مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية . وذلك لذكر « الجهاد » فيها وذكر « للناقين » . . . ولكننا نرجح أن السورة كلها مكية . وقد ورد في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد ابن أبي وقاص كما سيحى* . وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال . وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التي قيل إنها مدنية . لذلك نرجح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير . لأنها واردة بسدد الجهاد ضد الفتنة . أى جهاد النفس لتصبر ولا تغتن . وهذا واضح في السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بسدد تصوير حالة نموذج من الناس . والسورة كلها مناسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام .

إنها تبدأ بعد الحروف للقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة ؛ وعن تكاليف الإيمان الخفة التي تكشف عن مدنه في النفوس . فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على للكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف .

ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها ؛ فإن سياقها يعنى بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب ، وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، استمرارنا سريعاً بصور ألوانا من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان . على امتداد الأجيال .

ثم يعقب على هذا القصص وما تكشف فيه من قوى مرصودة في وجه الحق والهدى ، بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها ، وقد أخذها الله جميعاً :

« فكلوا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا » . .

ويضرب لهذه القوى كلها مثلاً مصوراً يحسم وهناتها وتفاهتها :

« مثل الذين أخذوا من دون الله أولياء كمثل النكבות اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبیت النكבות لو كانوا يعلمون » .

ويربط بعد ذلك بين الحق الذي في تلك الدعوات والحق الذي في خلق السماوات والأرض ؛ ثم يوحد بين تلك الدعوات جميعاً ودعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فكلها من عند الله . وكلها دعوة واحدة إلى الله . ومن ثم يعنى في الحديث عن الكتاب الأخير وعن استقبال

الشركين له ؟ وهم يطلبون الخوارق غير مكفين بهذا الكتاب وما فيه من رحمة وذكري
لقوم يؤمنون . ويستجولون بالمذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . ويتناقضون في منطقهم :
« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ا » . . « ولئن سألتهم من نزل من
السما ماء فأجيبا به الأرض بعد موتها ليقولن الله ا » . . « فلإذا ركبوا في الفلك دعوا الله
مخلصين له الدين » . . ولكنهم مع هذا كله يشركون بالله ويفتون المؤمنين .

وفي ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فرارا بدينهم من الفتنة ، غير خافين
من الموت ، إذ « كل نفس ذائقة للموت ثم إلينا يرجعون » . غير خافين من فوات الرزق :
« وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » . .

وعنم السورة بتجديد المجاهدين في الله وطمانتهم على الهدى وتثبيتهم : « والذين جاهدوا
فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع الحسني » . . فيلتم الختام مع المطلع وتوضح حكمة
السياق في السورة ، وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام ، حول محورها الأول
وموضوعها الأميل .

ويمضي سياق السورة حول ذلك المحور الواحد في ثلاثة أشواط :

الشوط الأول يتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الابتلاء والفتنة ، ومصير المؤمنين ولناقين
والكافرين . ثم فردية التبعة فلا يحمل أحد عن أحد شيئا يوم القيامة : « وليسألن يوم
القيامة عما كانوا يفترون » . .

والشوط الثاني يتناول القصص الذي أشرنا إليه ، وما يصوره من فن وعقبات في طريق
الدعوات والدعاة ، والتهوين من شأنها في النهاية حين تناس إلى قوة الله . ويتحدث عن الحق
السكن في دعوة الرسل ، وهو ذاته الحق السكمن في خلق السماوات والأرض . وكله من
عند الله .

والشوط الثالث يتناول النهي عن معادلة أهل الكتاب إلا بالحسن . إلا الذين ظلموا منهم .
وعن وحدة الدين كله ، واتحاده مع هذا الدين الأخير الذي يحدد به الكافرون ، ويجادل فيه
المشركون . وعنم بالثبوت والبرى والطمانينة للمجاهدين في الله المهدين إلى سبل الله :
« وإن الله لمع الحسني » . .

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته .
تهز الوجدان هذا . وتقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة جد صارم ؛ فلما النهوض بها وإما
النكوص عنها . وإلا فهو النفاق الذي يفضحه الله .

وهي إيقاعات لاسبيل إلى تصويرها بغير النصوص القرآنية التي وردت فيها . فنكتفي
بالإشارة إليها هنا حتى نستعرضها في موضعها مع السياق .

« ألف . لام . ميم » . .

الحروف للقطعة التي اخترنا في تفسيرها أنها للتنبيه إلى أنها مادة الكتاب الذي أنزله الله على
رسوله - صلى الله عليه وسلم - مؤلفا من مثل هذه الحروف ، المألوفة للقوم ، الميسرة لم يؤلفوا
منها ما يشاؤون من القول ؛ ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها مثل هذا الكتاب . لأنه من
صنع الله لا من صنع إنسان .

وقد قلنا من قبل : إن السور التي صدرت بهذه الحروف تتضمن حديثا عن القرآن ، إما
مباشرة بهذه الحروف ، وإما في ثنايا السورة ، كما هو الحال في هذه السورة . وقد ورد
فيها : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب » . . « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب » . .
« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك » . . « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك
الكتاب يتلى عليهم » . . مما يتشعب مع القاعدة التي اخترناها لتفسير هذه الأحرف في
افتتاح السور .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ الحديث عن الإيمان ، والفتنة التي يتعرض لها المؤمنون لتحقيق
هذا الإيمان ؛ وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؛ ولقد فتنا الذين من قبلهم
فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

إنه الإيقاع الأول في هذا المقطع القوي من السورة . يسبق في صورة استفهام استنكارى
لنهموم الناس للإيمان ، وحسابهم أنه كلمة تقال باللسان .

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؟ » . .

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ؛ وأمانة ذات أعباء ؛ وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفي أن يقول الناس : آتينا . وهم لا يتركون هذه الدعوى ، حتى يترضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم . كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين الناصر الرخيصة العالقة به . وهذا هو أصل الكلمة القوي وله دلالة وظله وإعناؤه . وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب .

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، في ميزان الله سبحانه :

« ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليمن الله الذين صدقوا وليمن الكاذبين » . .

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ماهو مكتوف تعلم الله ، منيب عن علم البشر ؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يملوه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وترية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعمل من أمره ، وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه ! ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعرضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين .

إن الإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص . وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة . فهي أمانة كريمة ؛ وهي أمانة ثقيلة ؛ وهي من أمر الله يسقط بها الناس ؛ ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ؛ ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ، ولا بملك النصرة لنفسه ولا لمنته ؛ ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان . وهذه هي الصورة البارزة للفتنة ، المصهودة في الذهن حين تذكر الفتنة . ولكنها ليست أعنف صور الفتنة . فهناك فتن كثيرة في صور شتى ، ربما كانت أمر وأدنى .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعا . وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ؛ وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله في الرحم

التي يمرضها للأذى أو الهلاك . وقد أثير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير .

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبتلين ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، تهتف لهم الدنيا ، وتصفق لهم الجماهير ، وتتحلم في طريقهم العوائق ، وتصاغ لهم الأعجاد ، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمل منكر لا يحس به أحد ، ولا يحاي عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً .

وهناك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالقميدة ، حين ينظر للؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقاً في تيار الضلالة ؛ وهو وحده موحش غريب طريد .

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام . فتنة أن يجد المؤمن أمماً ودولاً غارقة في الرذيلة ، وهي مع ذلك راقية في مجتمعا ، متحضرة في حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان . ويجدها غنية قوية ، وهي مشاقة لله !

وهناك الفتنة الكبرى . أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبية الأرض ، وثقل اللحم والدم ، والرغبة في التمتع والسلطان ، أو في الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاء ، مع اللعوقات والتبطات في أعماق النفس ، وفي ملابسات الحياة ، وفي منطق البيئة ، وفي تصورات أهل الزمان !

فلذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله ، كانت الفتنة أشد وأفسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف . ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤمنون على تلك الأمانة الكبرى ، أمانة السماء في الأرض ، وأمانة الله في ضمير الإنسان .

وما بالله - حاشا لله - أن يذب للؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة . ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة . فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للشاق ؛ وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات ، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام ، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه ، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء .

والنفس تصهرها الشدائد فتنفى عنها الحب ؛ وتستجيش كامن قواها للذخيرة فتستيقظ وتطرقها بنف وشدة فيشتد عودها ويسلب ويسقل . وكذلك تفعل الشدائد

بالجماعات ، فلا يبقى صامدا إلا أصلها عودا ، وأقواها طبيعة ، وأشدها اتصالا بالله ، وثقة فيها عنده من الحسنيين : النصر أو الأجر ، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية ، مؤتمنين عليها بعد الاستمداد والاختيار .

وإنهم ليسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالى الثمن ؟ وبما بذلوا لها من الصبر على المحن ؟ وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات . والذي يندلج من دمه وأعصابه ، ومن راحته واطمئنانه ، ومن رغائبه ولداته . ثم يسبر على الأذى والحرمات ؟ يشعر ولاشك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل ؟ فلا يسلمها رخيصة بصد كل هذه التضحيات والآلام .

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله . وما يشك مؤمن في وعد الله . فإن أبطأ فلحكمة مقدره ، فيها الخير للإيمان وأهله . وليس أحد بأفقر على الحق وأهله من الله . وحسب للؤمنين الذين تصيبهم الفتنة ، ويقع عليهم البلاء ، أن يكونوا هم المختارين من الله ، ليكونوا أمناء على حق الله . وأن يشهد الله لهم بأن في دينهم صلاحة فهو يختارهم للابتلاء :

جاء في الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلاحة زيد له في البلاء » . .

وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويمهلون السيئات ، فإمام بمفقتين من عذاب الله ولا ناجين . منها انتفخ باطلهم وانتفض ، وبدا عليه الانتصار والقلاح . وعد الله كذلك وستته في نهاية اللطاف :

« أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون ! » . .

فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق ، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تقديره ، واحتل تصوره . فإن الله الذي جعل الابتلاء سنة ليمتحان إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين ؟ هو الذي جعل أخذ للسيئات سنة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تعيد .

وهذا هو الإيقاع الثاني في مطلع السورة ، الذي يوازن الإيقاع الأول ويمادله . فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، غلبة للسيئين وأخذ للفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء .

أما الإقناع الثالث فيتمثل في تطمين الذين يرجون لقاء الله ، ووصل قلوبهم به في ثقة وفي يقين :

« من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم » ..

فلتقر القلوب الراجية في لقاء الله ولتطمئن ؛ ولتنتظر ما وعدها الله إياه ، انتظار الواصلين للستيقن ؛ ولتطلع إلى يوم اللقاء في شوق ولكن في يقين .

والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية . صورة الراجي المشتاق ، للوصول بما هناك . ويوجب على التطلع بالتركيد للريح . ويسبق عليه بالطمأنينة الندية ، يدخلها على تلك القلوب . فإن الله يسمع لها ، ويعلم تطلعها : « وهو السميع العليم » .

والإقناع الرابع يواجه القلوب التي تحتمل تكاليف الإيمان ، ومشاق الجهاد ، بأنها إنما تجاهد نفسها وخصمها ولاستكمال فضائلها ، ولإصلاح أمرها وحياتها ؛ وإلا فإيا بالله من حاجة إلى أحد ، وإنه لنفى عن كل أحد :

« ومن جاهد فإنا مجاهد لنفسه ، إن الله لنفى عن العالمين » ..

فلذا كتب الله على المؤمنين القتلة وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق ، فلما ذلك لإصلاحهم ، وتكميلهم ، وتحقيق الخير لهم في الدنيا والآخرة . والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه ؛ ويرفع من تصوراته وآفاته ؛ ويستعمل به على الشح بالنفس والمال ، ويستجيش أفضل ما في كيانه من مزايا واستعدادات . وذلك كله قبل أن يتجاوز به شخصه إلى الجماعة المؤمنة ، وما يعود عليها من صلاح حالها ، واستقرار الحق بينها ، وغلبة الخير فيها على الشر ، والصلاح فيها على الفساد .

« ومن جاهد فإنا مجاهد لنفسه » .

فلا يقفن أحد في وسط الطريق ، وقد مضى في الجهاد شوطا ؛ يطلب من الله بمن جهاده ؛ ويمن عليه وعلى دعوته ، ويستبطن الكفاة على ما ناله ؛ فإن الله لا يناله من جهاده شيء . وليس في حاجة إلى جهد بشر ضئيف هزيل : « إن الله لنفى عن العالمين » . وإنما هو فضل من الله أن يمينه في جهاده ، وأن يستخلفه في الأرض به ، وأن يأجره في الآخرة بثوابه :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » .

فليطمئن المؤمنون الماملون على ما لهم عند الله ، من تكفير للسيئات ، وجزاء على الحسنات .
وليصبروا على تكاليف الجهاد ؛ وليثبتوا على الفتنة والابتلاء ؛ فالأمل للشرق والجزاء الطيب ،
ينتظرانهم في نهاية اللطاف . وإنه حسب للؤمن حقوفاته في الحياة الانتصاف .

* * *

ثم يجرى إلى لون من ألوان الفتنة أشرنا إليه في مطلع السورة : فتنة الأهل والأحباء . فيفصل
في للوقت الدقيق بالقول الحازم الوسط ، لا إفراط فيه ولا تفريط :

« ووصينا الإنسان بوالديه حسنا . وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا
تطعهما ، إلی مرجعك فأنتك بما كنتم تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم
في الصالحين » .

إن الوالدين لأقرب الأقرباء . وإن لهما فضلا ، وإن لهما لرحما ؛ وإن لهما لواجبا
مفروضا : واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة . ولكن ليس لهما من طاعة في
حق الله . وهذا هو الصراط : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا . وإن جاهداك لتشرك بي
ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

إن الصلة في الله هي الصلة الأولى ، والرابطة في الله هي الروة الوثقى . فإن كان الوالدان
مشركين فلهما الإحسان والرعاية ، لا الطاعة ولا الاتباع . وإن هي إلا الحياة الدنيا ثم يمود
الجميع إلى الله .

« إلى مرجعك فأنتك بما كنتم تعملون » ..

وفصل ما بين المؤمنين والشركين . فإذا المؤمنون أهل ورفاق ، ولو لم يقدر بينهم نسب
ولا صهر :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين » ..

وهكذا يسود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم في الحقيقة ؛ وتذهب روابط الدم
والقربة والنسب والصهر ، وتنتهي باتهاء الحياة الدنيا ، فهي روابط عارضة لا أصيلة ،
لإقطاعها عن الروة الوثقى التي لا انقضاء لها .

روى الترمذى عند تفسير هذه الآية أنها نزلت في سعد ابن أبي وقاص - رضى الله عنه - وأمه حنة بنت أبي سفيان ، وكان باراً بأمه . فقالت له : ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت ، فتعير بذلك أبى الدهر ، يقال : يا قاتل أمه . ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفسك ما تركت ديني ، فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى . فلما أيست منه أكلت وشربت . فأنزل الله هذه الآية آمراً بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ، وعدم طاعتهما في الشرك .

وهكذا انتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم ؟ واستبقى الإحسان والبر . وإن المؤمن لمرصدة لثل هذه الفتنة في كل آن ؟ فليكن بيان الله وفعل معد هما راية النجاة والأمان .



ثم يرسم صورة كاملة للنموذج من النفوس في استقبال فتنة الإيذاء بالاستخذاء ، ثم الادعاء المريض عند الرخاء . يرسمها في كلمات معدودات ، صورة واضحة الملامح بارزة السمات :
« ومن الناس من يقول : آمنا بالله . فلذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كنا معكم . أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ وليعلن الله الدين آمنوا ، وليعلن للناقضين » ..

ذلك النموذج من الناس ، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء بحسبها خفيفة الحمل ، هينة المؤونة ، لا تسكلف إلا نطقها باللسان ، « فلذا أودى في الله » بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى « جعل فتنة الناس كعذاب الله » فاستقبلها في جزع ، واختلت في نفسه القيم ، واهتزت في ضميره العقيدة ؟ وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذى يلقاه ، حتى عذاب الله ؟ وقال في نفسه : ها هو ذا عذاب شديد ألم ليس وراءه شيء ، فلام أصبر على الإيمان ، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب ؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر ، وعذاب الله الذى لا يعرف أحد مداه .

هذا موقف ذلك النموذج من الناس في استقبال الفتنة في ساعة الشدة .
« ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كنا معكم »
إنا كنا معكم .. وذلك كان موقفهم في ساعة المسرة من التخاذل والتهاوت والتهارى ،

وسوء التصوير وخطأ التقدير . ولكن حين يحىء الرخاء تنبث الدعوى العريضة ، وينفث
المنزورون المتخاذلون ، ويستأمد الضعفاء المهزومون ، فيقولون : « إنا كنا معكم » !

« أو ليس الله بأعلم بما فى صدور المالين ؟ » ..

أو ليس يعلم ما تتطوى عليه تلك الصدور من صبر أو جزع ، ومن إيمان أو نفاق ؟ فمن
الذى يخدعه هؤلاء وعلى من يموهون ؟

« ولعلمن الله الذين آمنوا ولعلمن الناقصين » ..

وليكشفنهم فيعرفون ؟ فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين الناقصون .

وتقف لحظة أمام التعبير القرآنى الدقيق وهو يكشف عن موضع الخطأ فى هذا النموذج
من الناس حين يقول :

« جعل فتنة الناس كعذاب الله » ..

فليست الغلظة أن صرهم قد ضنّف عن احتمال العذاب ، فمثل هذا يقع للمؤمنين الصادقين
فى بعض اللحظات - والطاقة البشرية حدود - ولكنهم يظنون يفرقون تفرقة واضحة فى تصورهم
وشعورهم بين كل ما يملكه البشر لهم من أذى وتكليف ، وبين عذاب الله العظيم ؟ فلا يختلط
فى حسهم أبداً عالم القضاء الصغير وعالم الخلود الكبير ، حتى فى اللحظة التى يتجاوز
عذاب الناس لهم مدى الطاقة وجهد الاحتمال ... إن الله فى حس المؤمن لا يقوم له
شئ ، مها يتجاوز الأذى طاقته واحتماله .. وهذا هو مفرق الطريق بين الإيمان فى
القلوب والنفاق .



وأخيرا يعرض فتنة الإغواء والإغراء ؟ ويعرض معها فساد تصور الذين كفروا للتبعة
والجزاء ؟ ويقرر فردية التبعة وشخصية الجزاء . وهو البدء الإسلامى الكبير ، الذى يحقق
العدل فى أجلى مظاهره ، وأفضل أوضاعه :

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم . وما هم بحاملين من
خطاياهم من شئ . إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة
عما كانوا يفترون » ..

وقد كان الدين كفروا يقولون هذا غشيا مع تصورهم القبلى فى احتمال العشرة للدييات المشتركة والتبعات المشتركة . يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعاضتهم منها . ذلك إلى التمسك على قصة الجزاء فى الآخرة إطلاقا :

« اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » ..

ومن ثم يرد عليهم الرد الحاسم ، فيرد كل إنسان إلى ربه فردا ، يؤاخذ به عمله ، لا يحمل أحد عنه شيئا :

« وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء » ..

ويجيبهم بما فى قولهم هذه من كذب وادعاء :

« ولأنهم لكاذبون » ..

ويحملهم وزر ضلالتهم وشركهم واقتراثهم ، ووزر إضلالهم للآخرين . دون أن يعنى هؤلاء من تيمة الضلال :

« ولحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم . وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » .

ويطلق هذا الباب من أبواب الفتنة ؛ فيعلم الناس أن الله لا يحاسبهم جماعات . إنما يحاسبهم أفرادا ، وأن كل امرئ بما كسب رهين ..

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، فَأَنذَرْتَهُمُ الطُّوفَانَ وَهُمْ غَالِيُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ، وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .

« وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ الَّذِينَ يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهُ ، وَاشْكُرُوا لَهِ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

«وَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِيهِ اللَّهُ أَنْتَلِقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ :
 سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ أَنْتَلِقَ . ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ،
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْبَلُونَ *
 وَمَا أَنْتُمْ بِمُخْزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
 نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ بِرَحْمَتِي ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ . فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ .
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ
 بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ ، وَيَعْلَمُ بَعْضُكُمْ
 بَعْضًا ، وَمَتَّوَا سَلَّمَ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

« فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ، وَقَالَ : إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي
 الدُّنْيَا ، وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَنِ الْمَصْلِحِينَ .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَلَا إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ
 الْمَالِئِينَ * أَلَا إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ
 الْمُنْكَرَ ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ : إِلَّا أَنْ قَالُوا : اتَّبِعْنَا بِمَا اللَّهُ يَهْدِيكَ * إِنَّ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ * قَالَ : رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ .

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ،
 إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ : إِنِّي فِيهَا لَوطًا . قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

« وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ ، وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا ، وَقَالُوا : لَا تَمْنَحْ وَلَا تَمْرَنْ ، إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ كَأَنَّ مِنَ الْتَائِبِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ .

« وَعَادًا وَثَمُودَ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ ، وَذَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّمُوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَكَانُوا مُسْتَعْصِرِينَ .

« وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَائِقِينَ .

« فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ، وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُظَرِهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَفْقَهُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .

« خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * أَنْتَلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » ..

اتهى الشوط الأول بالحديث عن سنة الله في ابتلاء الدين يختارون كلمة الإيمان ، وفنتهم حتى يعلم الدين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين . وقد أشار إلى الفتنة بالأذى ، والفتنة بالقرابة ، والفتنة بالإغواء والإغراء .

وفي هذا الشوط يمرض نماذج من الفتن التي اعترضت دعوة الإيمان في تاريخ البشرية الطويل من لدن نوح عليه السلام . يمرضها بمثابة فيما لقيه الرسل حملة دعوة الله منذ فجر البشرية . مفصلاً بعض الشيء في قصة إبراهيم ولوط ، مجملًا فيما عداها .

وفي هذا القصص تمثل ألوان من الفتن ، ومن الصعاب والعقبات في طريق الدعوة . ففي قصة نوح - عليه السلام - تبدي ضخامة الجهد وسألة الحسيلة ، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم لم يؤمن له إلا القليل « فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » ..

وفي قصة إبراهيم مع قومه يتبدى سوء الجزاء وطفان الضلال . فقد حاول هدام ما استطاع ، وجادلهم بالحجة وللنطق : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتروه أو حرِّقوه » .

وفي قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة واستئلائها ، وسفورها بلا حياء ولا تخرج ، وأعداد البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ ؛ مع الاستهتار بالذنوب : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اتقنا بئذاب الله إن كنت من الصادقين » ..

وفي قصة شعيب مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » .

وتذكر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة .

كما تذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان اللال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق .

ويقتب على هذا القصص يمثل يضربه لهوان القوى للرصودة في طريق دعوة الله ، وهي مهما علت واستطالت « كمثل السكبوت اتخذت بيتاً . وإذ أوهن البيوت لبنت السكبوت لو كانوا يعلمون » .

ويتهى هذا الشوط بدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتلو الكتاب ، وأن يقيم الصلاة ، وأن يدع الأمر بعد ذلك لله « والله يعلم ما تصنعون » ..

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » ..

والراجح أن فترة رسالته التي دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلا خمسين عاما . وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة ، وأعقبها فترة كذلك بعد النجاة من الطوفان غير محددة . وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الأفراد . ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر في هذا الوجود - وهذا وحده برهان صدقه - فلذا أردنا له تفسيراً فإننا نستطيع أن نقول : إن عدد البشرية يومذاك كان قليلا ومحدودا ، فليس يبعد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة المدد طول العمر ، لعمارة الأرض وامتداد الحياة . حتى إذا تكاثرت الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار . وهذه الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الأحياء . فكلما قل المدد وقل النسل طالت الأعمار ، كما في النسور وبعض الزواحف كالسحفاة . حتى يبلغ عمر بعضها مئات الأعوام . بينما الدباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين . والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله :

بنات الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلدة نزور^(١)

ومن ثم يطول عمر الصقر . وتقل أعمار بنات الطير . والله الحكمة البالغة . وكل شيء عنده بمقدار . ولم تتمر ألف سنة - إلا خمسين عاما - غير العدد القليل الذين آمنوا لنوح . وجرف الطوفان الكثرة العظمى وهم ظالمون بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة للديانة ، ونجا العدد القليل من المؤمنين ، وهم أصحاب السفينة . ومضت قصة الطوفان والسفينة « آية للعالمين » تحذيرهم عن عاقبة الكفر والظلم على مدار القرون .

وبعد قصة نوح يطوى السياق القرون حتى يصل إلى الرسالة الكبرى . رسالة إبراهيم : « وإبراهيم إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثانا ، وتخلقون إفكا . إن الدين تبعدون من دون الله لا يملكون لكم ذقنا فأتبعوا عند الله الرزق واعبدوه ، واشكروا له ، إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ للبين » ..

لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ؛ وهي مرتبة في عرضها ترتيبا دقيقا يحسن أن يتحملاه أصحاب الدعوات ..

(١) بنات الطير : ضفاد . ومقلدة نزور ، أى مقلدة في الفرائح .

لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوه إليها :

« اعبدوا الله واتقوه » . .

ثم نرى بتجيب هذه الحقيقة إليهم ، وما تضمنه من الخير لهم ، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

وفي هذا التقيب ما يحفزهم إلى نفي الجهل عنهم ، واختيار الخير لأنفسهم . وهو في الوقت

ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهيج خطابي .

وفي الخطوة الثالثة بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه : أولها أنهم يعبدون من دون الله أوثانا - والوثن : التمسك من الخشب - وهي عبادة سخيفة ، وبخاصة إذا كانوا يعبدون بها عن عبادة الله .. وثانيها : أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل ، وإنما يخلقون إفكاً وينشئون باطلا ، مخلوقه خلقا بلا سابقة أو مقدمة ، وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة . . وثالثها : أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نقما ، ولا ترزقهم شيئا : « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » . .

وفي الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق . الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم :

« فابتنوا عند الله الرزق » . .

والرزق مشغلة النفوس ، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان . ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استتارة لليول الكامنة في النفوس .

وفي النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق للفضل بالنعم ، ليمدوه ويشكروه :

« واعبدوه واشكروا له » . .

وأخيرا يكشف لهم أنه لا مفر من الله ، فمن الخير أن يشيروا إليه مؤمنين عابدين شاكرين :

« إليه ترجون » . .

فإن كذبوا - بعد ذلك كله - لما أهون ذلك ! فلن يضر الله شيئا ، ولن يخسر رسوله

شيئا . فقد كذب الكثيرون من قبل ، وما على الرسول إلا واجب التبليغ :

« وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » . .

وهكذا يأخذهم خطوة خطوة ، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها ، ويوقع على أوتارها في دقة عميقة ، وهذه الخطوات تمد نموذجاً لطريقة الدعوة جديراً بأن يمتلأ أصحاب كل دعوة ، لينسجوا على منواله في مخاطبة النفوس والقلوب .

* * *

وقبل أن نغوص في السباق إلى نهاية القصة ، يقف وقفة يخاطب بها كل منكر لدعوة الإيمان بالله على الإطلاق ؛ للكافرين بالرجعة إلى الله والبحث والمآب :

« أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي ، وأولئك لهم عذاب أليم » . .

إنه خطاب لكل منكر لله ولقائه . خطاب دليله هذا الكون ؟ وبجمله السماء والأرض ؟ على طريقة القرآن في اتخاذ الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله ؟ وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب ، تبحث فيها عن آيات الله ، وترى دلائل وجوده ووحديته ، وصدق وعده ووعدته . ومشاهد الكون وظواهره حاضرة أبداً لا تغيب عن إنسان . ولكنها تفقد جدتها في نفوس الناس بطول الألفة ؟ ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار . فيردم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الناضرة ، وإلى تلك الآيات الباهرة بتوجيهه للموحى ، المحي للشارع والظواهر في القلوب والضمائر ، ويشير تطعيمهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها . ويجعل منها دلائله وبراهينه التي تراها الأبصار وتتأثر بها الشعاع ، ولا يتخذ طرائق الجدل الذهني البارد والقضايا المنطقية التي لا حياة فيها ولا حركة . . تلك التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه فظلت غريبة عليه ، وفي القرآن للثل والنهج والطريق . .

« أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ؟ ثم يعيده . إن ذلك على الله يسير » . .

وإتهم لبرون كيف يبدئ الله الخلق . يروونه في النبتة النامية ، وفي البضة والجنين ، وفي كل مالم يكن ثم يكون ؟ بما لا تملك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوه أو يدعوا أنهم

خالقوه ! وإن سر الحياة وحده لمعجز ، كان وما يزال ؛ معجز في معرفة منشئه وكيف جاء
- وضع عنك أن يحاوله أحد أو يدعيه - ولا تفسير له إلا أنه من صنع الله الذى يبدئ الخلق فى
كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم ، وهم يرون ولا يملكون الإنكار !
فإذا كانوا يرون إنشاء الخلق بأعينهم ؟ فالذى أنشأهم يديه :

« إن ذلك على الله يسير » . .

وليس فى خلق الله شئ عسير عليه تعالى . ولكنه يقيس البشر بمقاييسهم . لإعادة أبسر
من البدء فى تقديرهم . وإلا فالبدء كالإعادة ، والإعادة كالبدء بالقياس إلى قدرة الله سبحانه .
وإنما هو توجه الإرادة وكلمة : كمن . فيكون ..

ثم بدعوم إلى السير فى الأرض ، وتتبع صنع الله وآياته فى الخلق والإنشاء ، فى الجامد
والحى سواء ، ليدركوا أن الذى أنشأهم يبدى بلا عناء :

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؛ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . إن
الله على كل شئ قدير » . .

والسير فى الأرض يفتح العين والقلب على للشاهد الجديدة التى لم تألفها العين ولم يلمسها
القلب . وهى لفحة عميقة إلى حقيقة دقيقة . وإن الإنسان ليمش فى للكان الذى ألقاه فلا يكاد
ينتبه إلى شئ من مشاهدته أو عجائبه ؛ حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسه وقلبه إلى كل
مشهد ، وإلى كل مظهر فى الأرض الجديدة ، مما كان يمر على مثله أو أروع منه فى موطنه دون
التفات ولا انتباه . وربما عاد إلى موطنه بحس جديد وروح جديد ليبحث ويتأمل ويسجب بما
لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته . وعادت مشاهد موطنه وعجائبا تنطلق له بعد ما كان
غافلا عن حديثها ؛ أو كانت لا تفصح له بشئ ولا تتأجيه !

فبحان منزل هذا القرآن ، الخبير بمدخل القلوب وأسرار النفوس .

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » . .

إن التعبير هنا بلفظ الماضى « كيف بدأ الخلق » بعد الأمر بالسير فى الأرض لينظروا كيف
بدأ الخلق . يثير فى النفس خاطرا ممتنا . . ترى هنالك فى الأرض ما يدل على نشأة الحياة
الأولى ، وكيفية بدء الخليقة فيها . كالحفريات التى يقتضيها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط

الحياة ؟ كيف نشأت ؟ وكيف انتشرت ؟ وكيف ارتقت ؟ — وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سر الحياة : ماهى ؟ ، ومن أين جاءت إلى الأرض ؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي ؟ — ويكون ذلك توجيها من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة ..

ويقوم بجانب هذا الحاطر خاطر آخر . ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثا ؛ فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به — لو كان ذلك هو المقصود — فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمرا آخر داخلا في مقدورهم ، يحصلون منه على مايسر لهم تصور النشأة الآخرة . ويكون للطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان . ويكون السير في الأرض كأسلفنا لتثنيه الحواس وللشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ودعوتها إلى التأمل والتدبر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

وهناك احتمال أهم يتمشى مع طبيعة هذا القرآن ؛ وهو أنه يوجه توجيهاته التي تناسب حياة الناس في أجيالهم جميعا ، ومستوياتهم جميعا ، وملابسات حياتهم جميعا ، ووسائلهم جميعا . لباخذ كل منها بما تؤهله له ظروف حياته ومقدراته . ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحياة ونموها أبدا . ومن ثم لا يكون هناك تناقض بين المخاطرين . هذا أقرب وأولى .

« إن الله على كل شيء قدير » ..

يبدأ الحياة ويمدها بهذه القدرة المطلقة التي لا تنقيد بتصورات البشر القاصرة ، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن ، بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة ؛ ومن قدرة الله على كل شيء : تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب ؛ لا يعجزه أحد ، ولا يتمتع عليه أحد :

« يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تهبون . وما أتم بمجزيين في الأرض ولا في السماء . وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » . .

والعذاب والرحمة يقبضان مشيئة الله ؛ من حيث أنه بين طريق الهدى وطريق الضلال ؛

وخلق للإنسان من الاستمداد ما يختار به هذا أو ذلك ، ويسر له الطريقين سواء ، وهو بمد ذلك ، وما يختار غير أن اتجاهه إلى الله ورغبته في هداة ، يتبين به إلى عون الله له - كما كتب على نفسه - وإعراضه عن دلائل الهدى وسده عنها يؤديان به إلى الانتطاع والضلال . ومن ثم تكون الرحمة ويكون العذاب .

« وإليه تقلبون » ..

تعبير عن اللآب فيه عطف ، يناسب للمنى بعده :

« وما أنتم بمسجزين في الأرض ولا في السماء » ..

فليس لكم من قوة في هذا الوجود تمتعون بها من الإقلااب إلى الله . لا من قوتكم في الأرض ، ولا من قوة ما تميدونه أحيانا من الللائكة والجن وتحسبون له قوة في السماء .

« وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » ..

وأين من دون الله الولى والنصير؟ أين الولى والنصير من الناس؟ أو من الللائكة والجن؟ وكلهم عباد من خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فوق أن يملكوا لسواهم شيئا؟ « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لم عذاب أليم » .. ذلك أنه لا يأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، ويقطع ما بينه وبين ربه . وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله ، وجفت ندائوته ، ولم يمد له إلى رحمة الله سبيل . والعاقبة مروفة : « وأولئك لم عذاب أليم » ..

وبعد هذا الخطاب المتعرض في ثانيا القصة ، الذى جاء خطابا لكل منكر لدعوة الإيمان ولقوم إبراهيم ضننا .. بعد هذا الخطاب يود لبيان جواب قوم إبراهيم ، فيبدو هذا الجواب غريبا عجيبا ، ويكشف عن تبجح الكفر والظناني ، بما يملك من قوة ومن سلطان :

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه . فأأنجاه الله من النار . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ..

اقتلوه أو حرقوه .. ردا على تلك الدعوة الواضحة البسيطة للرتبة التى خاطب بها قلوبهم وعقولهم على النحو الذى يينا قيمته فى عرض الدعوات .

وإذ أن الطغيان أسفر عن وجهه السكج ؛ ولم يكن إبراهيم — عليه السلام — يملك له دفء ولا يستطيع منه وقاية. وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول . فنهنا تدخل القدرة سافرة كذلك .
تدخل بالمعجزة الحارقة لمألوف البشر :
« فأتجاه الله من النار » ..

وكان في نجاة من النار على النحو الحارق الذى عمت به آية لمن تها قلبه للإيمان . ولكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه الآفة الحارقة ، فدل هذا على أن الحوارق لا تهدى القلوب ،
إنما هو الاستمداد للهدى والإيمان :

« إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ..

الآفة الأولى هى تلك النجاة من النار . والآفة الثانية هى عجز الطغيان عن إبداء رجل واحد يريد الله له النجاة . والآفة الثالثة هى أن الحارقة لا تهدى القلوب الجاحدة . ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات ، وتصريف القلوب ، وعوامل الهدى والضلال .

وبعضى فى القصة بعد نجاة إبراهيم من النار . فقد يش من إيمان الدين لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة . فإذا هو ببعضهم حقيقة أمرهم ، قبل أن يترلم جميعا :

« وقال : إنما أخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلمن بعضكم بعضا ، وماواكم النار ، وما لكم من ناصرين » ..

إنه يقول لهم : إنكم أخذتم الأوثان من دون الله ، لا اعتقادا واقتناعا بأحقفة هذه العبادة ؛ إنما يعامل بعضكم بعضا ، ويوافق بعضكم بعضا ، على هذه العبادة ؛ ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه حين يظهر الحق له — استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة ! وإن هذا يقع فى الجماعات التى لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد ، فيسترضى الصاحب صاحبه على حساب العقيدة ؛ ويرى أمرها أهون من أن يخالف عليه صديقه ! وهى الجد كل الجد . الجد الذى لا يقبل تهاولا ولا استرخاء ولا استرخاء .

ثم يكشف لهم عن صفحتهم فى الآخرة . فإذا للودة التى يخشون أن يمحوها بالخلاف على العقيدة ، والتى يقون على عبادة الأوثان عافضة عليها .. إذا هى يوم القيامة عداو لمن وانقسام :
« ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلمن بعضكم بعضا » ..

يوم يتنكر التائبون للتبوعين ، ويكفر الأولياء بالأولياء ، ويتم كل فريق صاحبه أنه أضله ، ويلعن كل غوى صاحبه الذى أغواه !

ثم لا يجدى ذلك الكفر والتلاعن شيئا ، ولا يدفع عن أحد عذابا :

« وماؤاكم النار وما لكم من ناصرين » ..

النار التي أرادوا أن يحرقوه بها ، فصره الله منها ونجاه . فأما هم فلا نصرة لهم ولا نجاة !
وانتهت دعوة إبراهيم لقومه ، وللحجرة التي لاشك فيها . انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد
غير امرأته هو لوط . ابن أخيه فيما تذكر بعض الروايات . وهاجر معه من أور الكلدانيين
في العراق ، إلى ما وراء الأردن حيث استقر بهما للقمام :

« فآمن له لوط ، وقال : إني مهاجر إلى ربي ، إنه هو المزيّر الحكيم » ..

ونقب أمام قولة لوط : « إني مهاجر إلى ربي » .. ل ترى فيم هاجر . إنه لم يهاجر للنجاة .
ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة . إنما هاجر إلى ربه . هاجر متقربا له ملتجئا إلى حماه .
هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلمحه ودمه . هاجر إليه ليخلص له عبادته ويخلص له
قلبه ويخلص له كيانه كله في مهجره ، بعيدا عن موطن الكفر والضلال . بعد أن لم يبق
رجاء في أن يغيّر القوم إلى الهدى والإيمان بحال .

وعرض الله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله — عرضه عن هذا كله ذرية تمضي
فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت
في ذريته . وهو عوض ضخم في الدنيا وفي الآخرة :

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب . وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره في
الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » .

وهو فيض من العطاء جزيل ، يتجلى فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذي يمتثل فيه
الخلاص لله بكلية ، والذي أجمع الطغيان على حرقه بالنار ، فكان كل شيء من حوله بردا
وسلاما ، وعطفا وإنعاما . جزاء وفاقا .



ثم تأتي قصة لوط عقب قصة إبراهيم ، بعد ما هاجر إلى ربه مع إبراهيم ، فزلا بوادي
الأردن ؛ ثم عاش لوط وحده في إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت
فيها بعد . وكانت تسكن مدينة سدوم . وصار لوط منهم بالصر وللعيشة .

ثم حدث أن فشا في القوم شذوذ عجيب ، يذكر القرآن أنه يقع لأول مرة في تاريخ

البشرية . ذلك هو الليل الجنسى المنحرف إلى الله كور بدلا من الإناث اللاتي خلقهن الله للرجال ، لتتكون من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق القطرة المطرده في جميع الأحياء . إذ خلقها الله أزواجا : ذكرانا وإناثا . فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المائل قبل قوم لوط هؤلاء :

« ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديكم للنكر . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : إنا نأثم بعباد الله إن كنت من الصادقين . قال : رب انصرني على القوم المفسدين » . . ومن خطاب لوط لقومه يظهر أن الفساد قد استشرى فيهم بكل ألوانه . فهم يأتون الفاحشة الشاذة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين :

يأتون الرجال . وهي فاحشة شاذة قدرة تدل على انحراف القطرة وفسادها من أعماقها . فالقطرة قد تفسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة ، فتكون هذه جريمة فاحشة ، ولكنها داخلية في نطاق القطرة ومنطقها . فأما ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعا . وفساد في التركيب النفسى والتركيب العضوى سواء . فقد جعل الله لئدة الباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر ، وامتداده بالنسل الذى ينشأ عن هذه الباشرة . وجهاز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه الباشرة ، تقريبا وعضويا ، وفقا لذلك التناسق . فأما للباشرة الشاذة فلا هدف لها ، ولم يجهز الله القطرة بالتذاذها تبعا لانعدام الهدف منها . فإذا وجد فيها أحد لئدة فمضى هذا أنه انسلخ نهائيا من خط القطرة ، وعاد مسخا لا يرتبط بخط الحياة !

ويقطعون السبيل ، فينهون السال ، ويروعون المارة ، ويستدون على الرجال بالفاحشة كرها . وهي خطوة أبعد في الفاحشة الأولى ، إلى جانب السلب والتهب والإفساد في الأرض . ويأتون في ناديهم للنكر . يأتونه جهارا وفي شكل جماعى متفق عليه ، لا ينجل بعضهم من بعض . وهي درجة أبعد في الفحش ، وفساد القطرة ، والتبجح بالرديلة إلى حد لا يرجى معه صلاح !

والقصة هنا مختصرة ، وظاهر أن لوطا أمرم في أول الأمر ونهاهم بالحسن ؛ وأنهم أصروا على ما هم فيه ، فخوفهم عذاب الله ، وجههم بشناعة جرائمهم الكبرى :

« فإكان جواب قومه إلا أن قالوا : اتقنا بذياب الله إن كنتم من الصادقين ..
فهو التبعج في وجه الإنذار ، والتحدى للصوب بالكذب ، والشرود الذي لا تنتظر
منه أوبة . وقد أعذر إليهم رسولهم فلم يبق إلا أن يتوجه إلى ربه طالبا نصرة الأخير :
« قال : رب انصرني على القوم للفسدين » . .

وهنا يسدل الستار على دعاء لوط ، ليرفع عن الاستجابة . وفي الطريق يلم لللائكة
المكلفون بالتنفيذ بإبراهيم ، يشرونه بولد صالح من زوجه التي كانت من قبل عاقبا :
« ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا
ظالمين . قال : إن فيها لوطا . قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من
الغابرين » . .

وهذا للشهد . مشهد اللائكة مع إبراهيم . مختصر في هذا الوضع لأنه ليس مقصودا ؛
قد سبق في قصة إبراهيم أن الله وهب له إسحاق ويعقوب ؛ وولادة إسحاق هي موضوع
البشرى ، ومن ثم لم يفصل قصتها هنا لأن الترض هو إتمام قصة لوط . فذكر أن مرور
اللائكة بإبراهيم كان للبشرى . ثم أخبروه بمهمتهم الأولى : « إنا مهلكو أهل هذه القرية .
إن أهلها كانوا ظالمين » . .

وأدركت إبراهيم رفته ورأفته ، فراح يذكر لللائكة أن في هذه القرية لوطا ؛ وهو
صالح وليس بظالم !
وأجابه الرسل بما يطمئنه من ناحيته ، ويكشف له عن معرفتهم بمهمتهم وأنهم أولى
بهذه المعرفة !

« قالوا : نحن أعلم بمن فيها ؛ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » . .
وقد كان هواها مع القوم ، تفر جرائعهم وانحرافهم ، وهو أمر عجيب .
وينتقل إلى مشهد ثالث . مشهد لوط وقد جاء إليه اللائكة في هيئة فتية صلب ملاح ؛
وهو يعلم شنشنة قومه ، وما ينتظر ضيوفه هؤلاء منهم من سوء لا يملك له دفعا . فضاق صدره
وساء حضورهم إليه ، في هذا الظرف العصيب :

« ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا » . .
ويغتمر هنا هجوم القوم على الضيوف ، ومحاورة لوط لهم ، وهم في سمار الشذوذ

المريض .. وعفى إلى النهاية الأخيرة . إذ يكشف له الرسل عن حقيقتهم ، ويخبرونه بمهمتهم ، وهو في هذا الكرب وذلك الضيق :

« وقالوا : لا تخف ولا تحزن . إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجلا من السماء بما كانوا يفسقون » . .

وترسم هذه الآية مشهد التدمير الذي أصاب القرية وأهلها جميعا - إلا لوطا وأهله المؤمنين - وقد كان هذا التدمير بأمطار وأحجار ملوثة بالطين . ويشلب أنها ظاهرة بركانية قلبت المدينة وابتلعها ، وأمطرت عليها هذا المطر الذي يصاحب البراكين .

وما تزال آثار هذا التدمير باقية تحدث عن آيات الله لمن يعقلها ويتدبرها من القرون :
« ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون » . .

وكان هذا هو المصير الطبيعي لهذه الشجرة الحبيثة التي فسدت وأنتنت ، فلم تعد صالحة للإثمار ولا للحياة . ولم تعد تصلح إلا للاجثاث والتحطيم .



ثم إشارة إلى قصة شيب ومدين :

« وإلى مدين أخام شعيا ، قال : يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ، ولا تشوا في الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين » . .

وهي إشارة بين وحدة الدعوة ، ولباب العقيدة : « اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر » . . وعبادة الله الواحد هي قاعدة العقيدة . ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عما كانوا يروجونه في هذه الحياة الدنيا من الكسب للمادى الحرام بالتطفيف في الكيل والميزان ، وغصب المارين بطريقهم للتجارة ، وبخس الناس أشياءهم ، والإفساد في الأرض ، والاستطالة على الخلق .

وفي اختصار يذكر انتهاء أمرهم إلى تكذيب رسولهم ؛ وأخذهم بالهلاك والتدمير ، على سنة الله في أخذ المكذابين .

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » . .

وقد تقدم بيان الرجفة التي زلزلت عليهم بلادهم ورجتها بعد الصيحة المدوية التي أسقطت

قلوبهم وتركهم مصموقين حيث كانوا في دارهم لا يتحركون . فأصبحوا فيها جاعين . جزاء
ما كانوا يروعون الناس وهم يخرجون عليهم مغيرين صاعجين !

وإشارة كذلك إلى مصرع عاد وشمود :
« وعادا وشمود وقد تبين لكم من مساكنهم ؛ وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدم عن
السييل وكانوا مستبصرين » ..

وعاد كانت تسكن بالأحاف في جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت ، وشمود كانت
تسكن بالحجر في شمال الجزيرة بالقرب من وادي القرى . وقد هلك عاد بريح صرصر
عاتية ، وهلكت شمود بالصيحة للزلزلة . وبقيت مساكنها معروفة للمرب يمررون عليها في
رحلتي الشتاء والصيف ، ويشهدون آثار التدمير ، بعد الزلزال والتمكين .

وهذه الإشارة الجملة تكشف عن سر ضلالهم ، وهو سر ضلال الآخرين .

« وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدم عن السييل وكانوا مستبصرين » ..
فقد كانت لهم عقول ، وكانت أمامهم دلائل الهدى ؛ ولكن الشيطان استحوهم وزين
لهم أعمالهم . وأنهم من هذه الثغرة للكشفة ، وهى غرورهم بأنفسهم ، وإعجابهم بما يأتونه
من الأعمال ، واغداهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع . « فصدم عن السييل » سييل الهدى
الواحد للؤدى إلى الإيعان . وضع عليهم الفرصة « وكانوا مستبصرين » يملكون البصر ،
وفهم مدارك ولهم عقول .

وإشارة إلى قارون وفرعون وهامان . « ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا في الأرض ،
وما كانوا سابقين » ..

وقارون كان من قوم موسى فبنى عليهم بثروته وعلمه ، ولم يستمع نصيح الناصحين بالإحسان
والاعتدال والتواضع وعدم البنى والفساد . وفرعون كان طاغية غشوما ، يرتكب أبشع
الجرائم وأغلظها ، ويسخر الناس ويعملهم شيئا ، ويقتل ذكورا بنى إسرائيل ويستحي نساءهم
عتوا وظلما . وهامان كان وزيره للدبر لسكائده ، الممين له على ظله وبطشه .
« ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض » ..

فلم يصممهم الثراء والقوة والدهاء . لم تصممهم من أخذ الله ، ولم تجعلهم ناجين ولا مملكين من عذاب الله ، بل أدرهم وأخضعهم كما سيحيى .
« وما كانوا سابقين » ..

هؤلاء الذين ملكوا القوة واللال وأسباب البقاء والعلية ، قد أخذهم الله جميعا . بعد ما فتوا الناس وأذوم طويلا :

« فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليعظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .
فما أخذهم حاصب وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حباء الأرض فتضربهم وتقتلهم ، وتعود أخذتهم الصيحة . وقارون خسف به وبداره الأرض ، وفرعون وهامان غرقا في اليم وهبوا جميعا مأخوذِينَ بظلمهم . « وما كان الله ليعظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ..

والآن . وعلى مصارع المتاة البغاة من الكفرة والظلمة والفسقة على مدار القرون . .
والآن . وبعد الحديث في مطالع السورة عن الفتنة والابتلاء والإغراء . . الآن يضرب الثلث لحقيقة القوى للتصارعة في هذا المجال . . إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله . وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتسى ، فهو كالمنكبوت الضميعة تحتى بيت من خيوط واهية . فهي وما تحتى به سواء :

« مثل الذين أخذوا من دون الله أولياء كمثل المنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبیت المنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يقبلها إلا العالمون » . .

إنه تصور عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود . الحقيقة التي ينفل عنها الناس أحيانا ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع اللوازين . ولا يعرفون إلى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يدعون ؟
وعندئذ نخضعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض ،

فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ، ويغشونها ويفزعون منها ، ويترضونها ليكتفوا عن أنفسهم أذاها ، أو يضمنوا لأنفسهم حماها !

وتخضعهم قوة المال ، بحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة . ويتقدمون إليها في رغب وفي رهب ؛ ويسعون للحصول عليها ليستطيعوا بها ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون !

وتخضعهم قوة العلم بحسبونها أصل القوة وأصل المال ، وأصل سائر القوى التي يصل بها من يملكها ويحول ، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب !

وتخضعهم هذه القوى الظاهرة . تخضعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول ، فيدورون حولها ، ويتهاقنون عليها ، كما يدور الفرائش على المصباح ، وكما يتهاقت الفرائش على النار !

وينسبون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة ، وتملكها ، وتمنعها ، وتوجهها ، وتسخرها كما تريد ، حيثما تريد .

وينسبون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد ، أو الجماعات ، أو الدول . كالالتجاء الضكبيوت إلى بيت الضكبيوت ... حشرة ضئيلة رخوة واهنة لاحتماية لها من من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن .

وليس هنالك إلا حماية الله ، وإلا حماه ، وإلا ركنه القوى الركين .

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عنى القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقعت في طريقها ؛ وداسست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض ودكت بها المعازل والحصون .

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم ، وجرت معه في المروق ، ولم تعد كلمة تقال باللسان ، ولا قضية تحتاج إلى جسد . بل بديهة مستقرة في النفس ، لا يحول غيرها في حس ولا خيال .

قوة الله وحدها هي القوة . وولاية الله وحدها هي الولاية . وما عداها فهو واهن مثيل هزيل ؛ مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطنى ، ومهما ملك من وسائل البطش والظلم والتعذيب .

لأنها العنكبوت : وما تملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت : « وإن أوهن البيوت
لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى ، وللإغراء والإغواء . لجديرون أن
يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة . هذه تضربهم
وتحاول أن تسحقهم . وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم .. وكلها خيوط العنكبوت في حساب
الله ، وفي حساب العقيدة حين تصح العقيدة ، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التفويض والتقدير .
« إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء » . .

لأنهم يستمعون بأولياء يتخذونهم من دون الله والله يعلم حقيقة هؤلاء الأولياء . وهى الحقيقة
التي صورت في اللؤلؤ السابق . . عنكبوت تحتمى بخيوط العنكبوت !
« وهو العزيز الحكيم » . .

هو وحده العزيز القادر القاهر الحكيم للمدير لهذا الوجود .
« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا المألون » . .
فلقد أخذها جماعة من الشركيين الملقى القلوب والعقول مادة للسخرية والتهكم . وقالوا :
إن رب محمد يتحدث عن الدباب والعنكبوت . ولم يهز مشاعرهم هذا التصوير العجيب لأنهم
لا يعقلون ولا يعلمون : « وما يعقلها إلا المألون » . .

ثم يربط تلك الحقيقة الضخمة التي قدمها بالحق الكبير في تصميم هذا الكون كله على
طريقة القرآن في ربط كل حقيقة بذلك الحق الكبير :

« خلق الله السماوات والأرض بالحق . إن في ذلك لآية للمؤمنين » . .
وهكذا تنبئ هذه الآية عقب قصص الأنبياء ، وعقب المثل للصور لحقيقة القوى في
الوجود ، متناسفة معها مرتبطة بها ، بتلك الصلة الملحوظة . صلة الحقائق للتناثر كلها بالحق
الكامن في خلق السماوات والأرض ؛ والذي قامت به السماوات والأرض ، في ذلك النظام
الدقيق الذي لا يتخلف ولا يعطى ولا يختلف ولا يصدم بمضه مضاً ، لأنه حق متناسق لا عوج فيه !
« إن في ذلك لآية للمؤمنين » . .

الذين تفتتح قلوبهم لآيات الله الكونية للبثوث في تضاعيف هذا الكون وحناياه ، المشهود

في تنسيقه وتنظيمه ، المنيورة في جوانبه حيث امتدت الأبصار . والمؤمنون هم الذين يدركونها ، لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر للتلقى والإدراك .

وفي نهاية الشوط يربط الكتاب الذي أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ويربط الصلاة وذكر الله . بالخلق الذي في السماوات والأرض ، وبسلسلة الدعوة إلى الله من لدن نوح عليه السلام :

« اتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » ..

اتل ما أوحى إليك من الكتاب فهو وسيلتك للدعوة ، والآية الربانية للمصاحبة لها ، والخلق المرتبط بالخلق الكامن في خلق السماوات والأرض .

وأتم الصلاة إن الصلاة - حين تمام - تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهي اتصال بالله ينجل صاحبه ويستحي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها ، وهي تطهر وتجرد لا يتسقى معها دنس الفحشاء والمنكر وتقتلها . « من صلى صلاة لم تنه عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعدا »^(١) . وما أقام الصلاة كما هي إنما أداها أداء ولم يقمها .. وفرق كبير بينهما . فهي حين تمام ذكر لله . « وذكر الله أكبر » . أكبر إطلاقاً . أكبر من كل اندفاع ومن كل زوع . وأكبر من كل تعبد وخشوع .

« والله يعلم ما تصنعون » ..

فلا يخفى عليه شيء ، ولا يلتبس عليه أمر . وأتم إليه راجعون . فجازيكم بما تصنعون ..

تم الجزء العشرون ، ويلي الجزء الواحد والعشرون
مبدوءاً بقوله تعالى : « ولا تعبدوا أهل الكتاب »

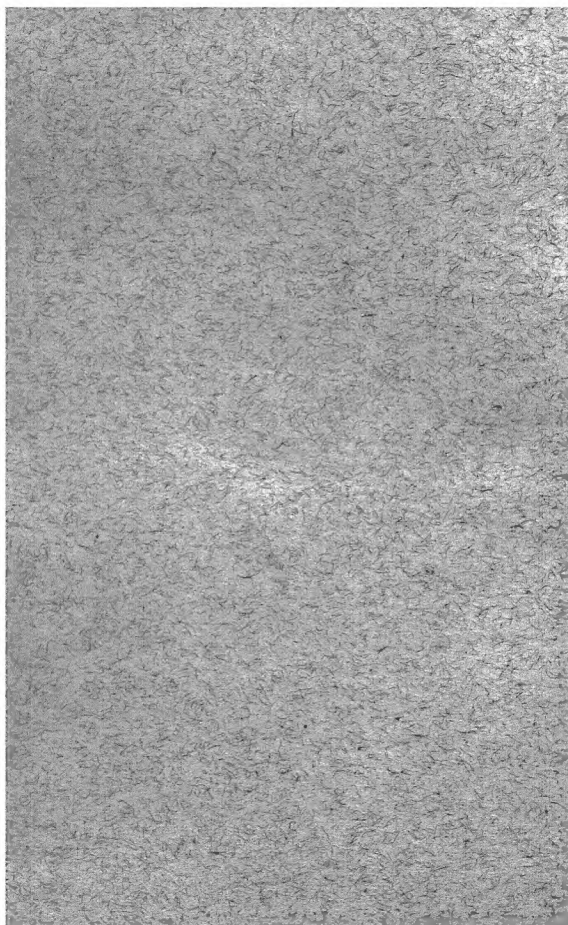
(١) رواه ابن جرير قال : حدثنا على حدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : قال رسول الله صل الله عليه وسلم : وذكر الحديث ..

كتب للمؤلف

- ١ - في ظلال القرآن (في ثلاثين جزءاً) دار إحياء الكتب العربية
- ٢ - العدالة الاجتماعية في الإسلام (طبعة رابعة) » » » »
- ٣ - معركة الإسلام والرأسمالية (» ثانية) دار الإخوان للطباعة والصحافة
- ٤ - السلام العالمى والإسلام (» ثانية) مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعبدين
- ٥ - دراسات إسلامية (» أولى) مكتبة لجنة الشباب للإسلم
- ٦ - التصوير الفني في القرآن (» ثالثة) دار للمعارف
- ٧ - مشاهد القيامة في القرآن (» ثانية) » »
- ٨ - النقد الأدبي : أصوله ومناهجه (» ثانية) دار الفكر العربى
- ٩ - أشواق (» أولى) دار سعد مصر بالتمجالة
- ١٠ - طفل من القرية (» ») لجنة النشر للجامعيين
- ١١ - الأطياف الأربعة (بالاشتراك مع إخوته) » » »
- ١٢ - القصص الدينى (بالاشتراك مع الأستاذ السحار) » » »
- ١٣ - الشاطئ المجهول (شعر) ... نقد
- ١٤ - كتب وشخصيات (نقد) ... »
- ١٥ - مهمة الشاعر فى الحياة (») ... »
- ١٦ - نقد كتاب مستقبل الثقافة (») ... »
- ١٧ - المدينة السحورة (قصة) ... »

المكتب التالية

- | | |
|-----------------------|--------------------------|
| (١) نحو مجتمع إسلامى | (٢) أمريكا التى رأيت |
| (٣) حلم الفجر (شعر) | (٤) قافلة الرقيق (شعر) |



122

Bibliotheca Alexandrina



0593920